أوبن داي

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

تدقيق لغوي

الأخضر بن الزهرة

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

الكتاب: أوبن داي

المؤلف: جيهان جمال

عدد الصفحات: 192

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: 38511969 - 00202

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 20858 / 2017

ISBN: 978- 977- 838- 026- 2

أوبن داي

مجموعة قصصية

جيهان جمال

2017

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل لحظات الألم التى جعلت منَّا إنسانًا مختلفًا وأقوى.. ينتصر لنفسه، ويتمسك بإنسانيته وسط هذا الزمن المُتغيِّر والنفوس المُتَغَيِّرة، لينجو بنفسه وبمن هم أغلى عليه من نفسه فيخاف عليهم، ويدعمهم أكثر، ويحتويهم أكثر وأكثر.. داعيًا الله عز وجل أن يصل بهم ومعهم إلى مرافىء من أمان إلى كل من احترم قلمى وقرأنى..

أشكركم جميعًا من كل قلبي، وأتمنى لكم مسيرة حياة هادئة.. ناجحة.. بإذن الله.

جيهان جمال

أوبن داي

لم تكن تدري أن تعاستها التي كانت وما زالت؛ تجتر حتى الآن انتكاسة أشلائها هي التي تذيقها مرارة الحياة، وتجعلها تتجرع كأس أسى الملامة لذاتها في كل حين لتكتب بحروف من عذابات سنوات كانت قادمة إليها لا محالة؛ سواء في غفلة منها، أو من عمر الزمن، فتواسي نفسها أحيانا بأن أقدرانا هي التي تكتب على جبين أيامنا الخطى، ومن كُتِبت عليه خطاه مشاها...

هي لم تكن تدري حينها أن أحمد كان قدرها الذي أسرعت الخطو إليه منذ أن تلهف عليها من أول نظرة جمعتهما، ثم بدأ يغريها بدماثة أخلاقه أن تسعى هي لترتب الخطو بين جنبات أيامه.

لم تكن تدري بأنها ستسعى للخلاص والخروج من تلك الشرنقة التي عاشت فيها منطوية كل سنوات عمرها؛ فعاشت لا تجرؤ أن تتخطى عتبات أحضان أمها وخالتها التي ساعدت في تربيتها، وتربية أختها الوحيدة من بعد وفاة الأب في مرحلة عمرية مبكرة.

لم تكن تقرأ أوراق الغيب لتعرف أنها ستلتقي بهذا الألم؛ إذ لم تكن تعلم أنها بعد أن تخلصت من شرنقتها، ومن هذا الانطواء الذي كان موروثا عائليا؛ قد ورثته عن أمها منذ وفاة أبيها حرصا عليهم من كلام الناس الذي لا يرحم.

سيكون ذاك الخلاص هو السر وراء خيبات الاختيار. لم تقرأ بأوراق الغيب أنها سيكون لها رفيقات على الدرب قد فرضت عليهن

لعبة الأيام أدوارا حتمت عليهن ارتياد طرقات المحن، واعتياد مشقة طول الطريق، حتى وإن كانت فريدة منذ البدايات تبيت وتصحو في كل يوم وليلة دون أن تلتفت لهذه النجوم التي صار شغلها الشاغل حين يحط الليل رحاله على نافذة العمر، وتلملم حكاياتها القادمة علها تأويها في أحضانها وهي آتية على مهل ترافق براءة سنوات العمر وهي تخطو على أول ثلاث عتبات للعشرين ربيعا.

هي ما لمحت أبدا هذه النجمات ولو مصادفة وهي تلملم الوجع القادم إليها منذ أن وضعت قدميها في عملها بالتليفزيون، ولا رأت تلك النجمات وهي تعاتب الأيام إلا تثقل خطوها على أطراف ثوب ليل من حرير بدا في الأفق البعيد حزينا.

بعد مرور السنوات... الإجازة الأسبوعية... يوم الجمعة...

يوم شتوي لا تخلو بعض أوقاته من بعض دفء؛ آثر أن يمنحه لهذه القلوب الملتفة حول بعضها البعض، فكلنا نحتاج لقلب يطمئن، وسلام يذكر أننا والدنيا لا نزال بخير.

تقف فريدة وصديقاتها الكثيرات على أطراف الحكايات يدا واحدة، فهذه تساند، وهذه تشارك، وهذه تطيب الخاطر من أي مخاطر ربما قد تلحق بإحداهن أو ربما تطل من عيون أيام قادمة مع حرصهن الدائم على أن تحتفظ كل واحدة منهن بهذه الضحكة الملونة بسعادة الأوقات أمام الجميع على الرغم من هذا الفيض من الشجن الشجي الواضح جدا في عيونهن.

تجدهن تنثرن البهجة هنا وهناك كي تكتمل رحلة العطاء الأسبوعية بتواجدهن المنتظم في هذا الموعد المحدد بأحد الأندية بالقاهرة

الجديدة، وعلى تلك الطاولة الكبيرة والمفترشة بالكثير من الحكايات، وتلك المعروضات الراقية من أكسسوارات، وملابس وأحذية، وشنط حريمي، وملابس ولعب أطفال، ومأكولات متنوعة أيضا وحلويات أحضرنها بحب نساء مثلهن؛ أردن مواجهة مشاكلهن والعمل بشرف.

تجدهن منشغلات جدا بالعمل الدؤوب في هذا اليوم. وبدلا من أن تقضين هذا اليوم في الاستجمام بلا أي مسؤوليات، أو تغتسلن من عناء أسبوع عمل مضنٍ بقعدة ستات هنية، تتخللها مذاقات طيبة لفناجين من القهوة تروح وتجيئ بينهن في دلال مصطحبة ضحكات قلوب سعيدة بثرثرتهن الفارغة من أية هموم.

وكاعتياد الأيام مع هذه الوجوه التي تروح وتجيء هنا وهناك مصطحبة فرحة العمر الهني التي تلهو مع البراءة التي تمرح في سعادة الأيام على وجوه أطفالهم لتخطو سنوات العمر بهم سنة تلو الأخرى وهي ترسم رواءها وهم يتضاحكون معا بعيدا.

ومنهم من هم عاشقون للمكوث على هذه الأرجوحة التي كلما جذبها قلب أبيهم، ولمسها بحنان دفء يديه سرى هذا الدفء يشع حبا يترقرق بعيونهم.

وها هو يرسل الأرجوحة وكأنها تطير بهم عاليا ليلامسوا نجوم السماء، ويلوحها الهواء ذهابا وإيابا مداعبا قلوبهم فتغرد كالعصافير.

لكن هذا الهواء الملوح بالسعادة في عيون أطفال رامي البريئة لم ير أنه متباعد عن عيون أخرى بريئة أيضا، وأن تلك العيون كلما راحت وجاءت تجدها تتربصه باشتياق، فظلت عيونهن كلما أطلت على هذا المشهد تؤكد أنها ما محت من الذكريات من آلامهن ومشاعرهن،

وتكشف الحجاب عن أوجاع هذا الحزن الدفين الذي قد توقف عندهن، وسكن مساحات العمر رافضا الرحيل.

هذا الحزن الذي كلما أراد أن يهزمهن كلما اشتد عزم قلوبهن أن يفيض بالحنان على أولادهن ليصيروا العوض عن هؤلاء الذين لم يدركوا معنى النبل، والحنان الذي يفيض من قلب رامي على أولاده أمامهم؛ لتجد أنهن في كل مرة أمام هذا المشهد الإنساني الذي حرمتهن منه قلوب استقوت بالقسوة عليهن وعلى أولادهن، كن يتمسكن بالخير الذي يملأ قلوبهن رافضات شعور الغيرة والحقد متمسكات بقارب النجاة.

صنعت كل واحدة سعادتها رغم جفاء الأيام، ورفضن كثيرا من الأسى الذي كان قد سكن لياليهن على الرغم من السؤال الحائر الذي ظل يلوح في الأفق في عقل كل واحدة منهن، وكأن السؤال صار أشبه بتلك الأرجوحة المعلقة في الهواء؛ خاصة أنه كثيرا كان يراود الخواطر المنكسرة لهؤلاء النسوة الصغيرات دونما إفصاح بأنه ما كان سيضير العمر لو كانت معظم أوقات الأيام ممتنة لهناء تلك اللحظات الجامعة ما بين هذا الرجل النبيل رامي وزوجته وأولاده!

أليست الحياة ستكون أدفأ، وأكثر أمانا وأريحية من تلك الحياة التي تركهن فيها بعضهن مخذولات على أطلال حكايات طرحت هموم أيامهن على تلك الطاولة الممتدة على هذا الجانب كسير الخاطر؟!

لكنه أبدا ما بدا مهيض الجناح وهو يضج أمام الكثيرين بكثير من نشاط يعلن عن نفسه بأنه محارب شرس لكل هذه الإحباطات، بل ومحارب قوي مسبق الإعداد، والتنسيق له خلال أيام الأسبوع الفائت، والمليئة

أيضا بالكثير من تفاصيل العمل المرهقة، وأحاديث المسؤوليات مع الأبناء لتتهيأ طلتهم أمام الجميع متحدثة عن نفسها، وشاهدة على أن تلك الإيادي التي امتدت وعبثت بأيامهن ما غلبتهن، وأن قلوب هؤلاء الرجال تحجرت وقست عليهن كثيرا، وما عاد التسريح بإحسان خلف كل باب له مكان يحترم في تلك البيوتات بعدما باتت النغمة النشاز هي ما تسمعه الأذن هنا وهناك: طالق. طالق. طالق!!!

وكأن هذه الطبول التي تدق ليل نهار فوق رؤوس الأبرياء الصغار وأمهاتهم أتت ليضل الإحسان الطريق، ويحل على تلك الأفئدة هذا التسريح بعدوان؛ فتخلي الآباء عن دورهم الأساسي في دعم ورعاية عائلاتهم بعدما طلقوا أمهات أولادهم، وأولادهم جملة واحدة؛ ظنا منهم أنهم قد تحرروا من قيد سجن حديدي غير عابئين ولا مدركين أن هذا الذي يطلقون عليه سجنا الآن كان من المفترض أن يصير يوما ما سكنا للمودة والرحمة بينهم وبين قلوب تلك النساء!

وما جال بعمى قلوبهم أن ذاك القيد كان من الممكن جدا أن تحيكه عقولهم الحكيمة، وقلوبهم اللينة برباط من حرير، وأنهم سيتنعمون بملامسة حماية أيامه الناعمة حين يدب الشيب خطواته الواهنة على عتبات سنواتهم الآتية شاءوا أم أبوا!

فتلك الأيام قادمة إليهم لا محالة كعجوز أشعث الشعر قبيح الملامح، بعدما يتكشف أمامهم طيف سنوات من زيف توسموا فيها أنها حريتهم المطلقة التي استردوها، وما كانوا مدركين حينها أنها ليست إلا شركا أوقعتهم أنانيتهم المفرطة فيه...

ليظل السؤال مطروحا ومتداولا على جانبي الحكايات، أو يطل من حين لحين ويجيب من تلقاء نفسه، أو يأخذ مقعده المعتاد من الحيرة

بين عقول وقلوب هؤلاء الجميلات في حسرة يشوبها كثير من الندم؛ حتى ولو كنت ستجدهم واقفات في وجه تلك الحياة القاسية؛ لتؤدي كل واحدة منهن ذات الدور المتناقض ما بين مشاعر الأمومة المرهفة الإحساس، ومسؤولية الآباء المتطلبة غالبا قدرا لا بأس به من خشونة تستدعيها قسوة المواقف؛ فترى ليلى وعالية وحالة من صناعة البهجة المستمرة التي ترى بالعين المجردة وهي تشع بين الجميع.

تتقاربن مع فريدة في أشياء كثيرة بدءا من المرحلة العمرية، ومرورا بكل مراحل رحلة العذاب عدا عالية، تتشارك معهن أيضا مدام نيڤين في صناعة هذه الطاقة الإيجابية التي تملأ المكان من خلال نشاطهم الأسبوعي المعتاد على الرغم من أنها قد سبقت قبلهن بسنوات عديدة لهذه الطرقات العديدة من تفاصيل العذابات الموجعة والمحزنة المارة بثقل الخطى في دهاليز عمرها الذي سبقهم أيضا بسنوات؛ فهي تكبرهن كثيرا، ومساء اليوم سوف يحتفلوا بعيد ميلادها الخامس والستين.

هذه السنوات التي تتمختر أخيرا في هدوء حتى وإن كان هذا التبختر على عتبات خريفية موهنة، لكنها بلا شك فرحة براحة البال التي ما كانت تزورها قبلا.

تنظر نيڤين وملأ عينيها نظرة مودة ومحبة إلى جميعهن، ثم تستوقف قلبها عند فريدة، وليلى كي تهديهما دعواتها الصادقة بأن تكون أيامهن أرق وأطيب من أيامها على الرغم من المؤشرات المخيفة لهذا الزمن الصعب؛ إذ أن السنوات قبلا لم تكن كذلك، فالزمن ربما كان أهدأ.

رغم هذا الصخب المزعج الذي صحوت ذات يوم عليه وهو يقرع بعنف على باب أيامها حين أذاقها زوجها في بدايات الرحلة المزهرة

لربيع العمر ذات العشر سنوات الأولى للزواج تلك الصدمة البالغة؛ التي لقنتها هذا الدرس العظيم، والذي شاركت ببراءة في أن يحدث، وما استوعبت فهمه آنذاك.

إن هذه الزيجة قد وضع لها هذا الزوج الغير مسؤول عمرا افتراضيا ستنتهي صلاحية أيامه بينهم في هذا التاريخ الذي قد دونه هو سرا مع خيالاته المريضة، ومن دون علمها قبل أكثر من خمسة وعشرين عأما تاركا أبواب المودة والرحمة بينهما شريدة تائهة، وتاركها آسفة على ائتمانه على أيامها التي خذلها.

طيلة العشرة أعوام التي عاشتها معه لم تخذله أبدا، وظلت كما بدايات عشقها الأول له، خاصة بعدما رزقا بدعاء ووليد؛ ليكونا هما هذا المداد الذي يعينها على الصبر على تصرفات مستبدة منه تجاوزتها هي عن رضى؛ مستندة على حائط الذكريات الهنية في أول عامين لها معه، والتي كانت تجعلها كلما التقته ألقت بنفسها في حضن قلبه البارد، وكأنها صارت ذاك الشال الحريري؛ الذي كانت تحب التدثر به في لياليه باردة المشاعر؛ فتلقي بها وبه على مرافئ صقيعة الموانئ...

في كل لقاء كان يضمهم ويجمعهم طوال هذه الأعوام. كان مثلها على هذا القدر من الثقافة والمكانة الاجتماعية، فكلاهما كان موظفا مرموقا في إحدى المؤسسات وكانا يتقاضيان راتبين محترمين؛ يستطيعان من خلالهما أن يعيشا في استقرار وأمان مادي وعائلي.

كان يتعلم أبناؤهم تعليما محترما في مدارس للغات كما كان الحال آنذاك، إذ كانوا أسرة سعيدة بالنظرة السطحية العادية، حتى كان ذاك اليوم، والذي مر عليه ما يقارب الآن ثلاثين عأما، ليكشف النقاب عما أخفته نيفين عن الجميع فى ذلك اليوم.

كان يوم عادى أستقلت فيه السيارة مع زوجها وأولادها صباحا، كي يذهبا بالأولاد لمدارسهم، ثم تنزل هي لعملها كالعادة بذات الطريق المستقيم في كل يوم ذهاب وعودة منذ سنوات.

بعد مرور ساعة من تواجدها بمكتبها تتلقى اتصالا هاتفيا على تليفون المكتب، الذي كانت قد تركته لجارتها العزيزة تحسبا لأي ظروف خاصة بإصلاحات بالعمارة، وما كانت تدري أنها ستكون خاصة بها؛ لتخبرها الجارة بكل تحسب وخيفة لم تدري لهما الجارة سببا وقتها غير هذا الشعور الذي قد تملكها؛ وهو أنه ربما قد يكون هناك خلاف قد حدث بينها وبين زوجها، ولا تريد نيڤين أن تخبر به أحدا، فحادثتها الجارة على استحياء بدافع هذا الشعور الخفي بالقلق عليها، وأخبرتها بأن أثاث شقتها بالكامل ينزل من شقتها على عربات خاصة بنقل الأثاث؛ لتدور الأرض بنيڤين...

هي لا تدري أي شيء هذا الذي جعل أثاث منزلها ينقل إلى الشارع دون علمها؛ ليتضح الموقف بعد ساعة واحدة من تواجدها أمام باب شقتها الذي أغلقه زوجها بعدما غير كالون الشقة الأصلي واستبدله بآخر!

ثم تتبين أن هذا الرجل قد طلقها منذ أسبوع دون علمها ودون مقدمات، أو أسباب جوهرية، خاصة أن أولادهما كانوا على مشارف الدخول للمرحلة الإعدادية. وبمرور أيام وسنوات العذاب، والمحاكم استطاعت أن تتدبر مبالغ مالية مستقطعة من راتبها لدفع مقدم شقة تمليك تابعة لجمعية إسكان تعاوني خاصة بعملها، لتلملم بها شتات حياتها، وحياة أولادها والتي لا تعلم أي أسباب قد أودت بها لهذا الشتات.

لم تطل البحث عن الأسباب كثيرا. فقد كان حرصها على أولادها، واحتواءهم أهم كثيرا من اللهث وراء أسباب رجل أحمق غير مسؤول،

فأكملت تربيتهم بهذا الراتب الخاص بها، والذي كان يستحوذ هو عليه ويعطيها منه مصروفا شحيحا كتلميذة صغيرة وهي مستسلمة راضية تماما، ولم تفصح لأحد عن ذلك كغيرها من بنات الأصول إلا بعد ما حدث، إلى جانب بعض مساعدات من أهلها، وبعض من نقود كانت تأخذها منه بالضالين كنفقة حددتها المحكمة لأولادها منه!

وتمر سنوات قليلة يتزوج خلالها هذا الرجل بأخرى في ذات شقة الزوجية القديمة، وتمر السنوات القليلة ثم تنقلب به السيارة على الطريق أثناء إحدى سفرياته ليكتب القدر كلمته الأخيرة، وتكمل هي ما بدأته وحدها في مشوار الحياة.

تمر بها السنوات تلو السنوات ليتزوج بعد ذلك الولد والبنت وتصبح هي الأم والصديقة صاحبة المشاعر الدافئة التي تنثرها ما بين أولادها وصديقاتها من نساء الأوبن داي.

فكما لكل واحدة منهن قصة كانت قد وضعت على الطاولة، ووضعت أيضا بقلب نيقين، إذ نجد أن كل واحدة منهن قد وضعت على كل قصة بصمتها الخاصة المتحدية بها القهر والظروف. فتلك الظروف التي أوقعتهن في هذه التجارب المؤلمة مع هذه الزيجات الفاشلة. ربما يلخصها دفء هذا المشهد الذي يجمعهم، وروعة تلك المعروضات التي تتحاكى عن نجاح بطولات هؤلاء النساء.

وها هي فريدة تقف على الطاولة تساعد الجميع، وبأسلوبها الراقي تكاد تنطق الحكايات، فهي محاورة صحفية شديدة اللباقة، جمالها ينتصف كل الأشياء، فتراها متوسطة الطول، خمرية البشرة، تتأرجح أحداق عينيها ما بين اللون البني والعسلي. معتدلة الملبس، والمظهر الأنيق؛ فتجدها لا تغالي في ارتداء أي شيء!

أما عينيها فما زالت شاردتين تطوف حول رامي وأولاده، تنظر خلسة إليه من خلف زجاج نظارتها الشمسية، خشية أن تفر إليه نظرة ندم. فها هو كما كان جارهم المهذب الذي رفضته زوجا منذ سنوات ليست بالبعيدة. فهي للأسف لم تر فيه حينها شيئا سوى أنه كان من الممكن أن يكون أخاها الذي تمنته.

ثم منذ ذلك الحين، وبعد عدة سنوات قلائل قابلته عدة مرات مع زوجته في إحدى مدارس اللغات، والتي كانت ابنتيها بها، ليمر من أمامها في مشهد متكرر مصطحب بكل محبة وحنان أبنائه وزوجته، وكأنه يخبئهم في حضن أيامه من تقلبات هذا الزمان.

ثم بدأ القدر يظهره على خريطة أيامها ما بين الحين والحين، وكأنه يطرق على جدار رأس أيامها. كي يجبر عينيها أن تعلن ندمها وأسفها كلما رأته في موقف ما مع زوجته.

ومع كثرة التلاقي والتواجد بالنادي بعد أن صارا جارين مرة أخرى؛ لم تعد وحدها التي ربما تطرد شعورا مريرا بالغيرة من تلك المرأة الجميلة زوجته. حتى صارت احتمالية وجود حساد لهذه الزوجة يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة وكأنه صار أعجوبة آخر الزمان.

أما هي. فكان يكفي الزائر لهذه النظرة العابرة لعينيها حين يعم المساء وترفع النظارة الشمسية أن يرى هذه البحور السابحة في عسل لا يدرك مذاقه أحد رغم مرارة مذاق الأيام. ولا يدري إن كانت ربما ستشفى من أحزانها أو ستجتر مرارة ذكريات سكنت تلك العيون يوما ما.

وما زالت حتى تلك اللحظة مبحرة بتلك العيون، تتباعد بعيونها عنه قبل أن يلمحها كي لا يرى تلك الأمنية التي داعبت شغاف قلبها وكأنها ماثلة للتحقق الآن!

إنها تبدو رغما عنها في أحيان كثيرة لكل من يراها من المقربين جدا منها، ودونما تنطق بكلمة واحدة وكأنها تضرب نفسها بكل ما يقابلها من أحذيتها القديمة والجديدة على رأسها ألاف المرات في كل مرة تراه فيها، حتى تكاد أن تصرخ في صمت يأن بينهن على غبائها في الاختيار! وتحملها كثير من السنوات الضائعة مع هذا الرجل المخادع، ثم يتحدث الصمت في وداعة وهو يتلعثم بحروف بريئة على جدار القلب.

آه وألف آه وآه من قسوة ومرارة الشعور بالندم! أحمد أبو الأولاد كان مجرد موظف حسابات عادي في مجال عملها مخرجة بالتلفزيون. حاصرها بعذوبة نظراته، وجذبها بهدوئه، وحسن إدارته لعمله بكل اجتهاد ودماثة أخلاقه المزيفة.

لم تكن تعلم بالبدايات أن هناك فجوة اجتماعية تفصل بينهما، وعلى الرغم من حرصه على عدم علمها بأنه متواضع النشأة، إلا أنه كان أكثر حرصا على أن يظهر بمظهر يليق بعمله في هذه المحطة الفضائية الهامة.

فكان يصرف معظم راتبه على ملبسه، ومظهره اللائق. وهي حين علمت بوضعه الاجتماعي المتواضع جدا ارتأت أن الفقر لا يعيبه أبدا. بل وشجعته على الانتقال لحلم أكبر، وعززت قدراته لتمكث بجواره طيلة أربع سنوات. كانا قد تزوجا خلالها، ليصبح من أكبر مديري الإنتاج في فترة وجيزة.

كانت خلالها تأخذ كل هذه الاعتبارات الاجتماعية المنطقية، وتنحيها جانبا. كما كانت هي أيضا تعيش بين الناس. فهي المنطوية

دائما. فليست هي المتشدقة بالأحاديث عن ظروف هذه أو تلك بين المجتمعات. ولا هي المتحدثة كثيرا عن وضعها الاجتماعي، ولا هي. كثيرة الخرجات والصحبة رغم ظروف عملها التي كانت تسمح بذلك.

بل هي التي ظلت حتى تزوجته كما البدايات؛ إذ كانت تقضي معظم سنوات العمر الأولى ما بين الدراسة، وصحبة الأهل التي عودتها أن تكون منطوية بينهم إلى حد كبير، لكنها المستوعبة لكل ما يدور حولها.

تعلمت في بيت أهلها النجاح والاعتماد على الذات، فعودوها هم أيضا اتخاذ القرار مع تحمل مسئوليته الكاملة. لذلك كان اعتراض أهلها متمثلا في الأم آنذاك مجرد لفت نظر! فلم تتوقف كثيرا عند وجهة نظر والدتها، وأكملت المسيرة بدء من تحمل تكلفة أشياء ضرورية، وباهظة التكاليف لإعداد منزل الزوجية دون علم والدتها ليظهر أمام أسرتها بالمظهر اللائق.

وبدلا من أن يعوضها عن سنوات وقفت فيها إلى جانبه تارة بالمحبة. وتارة بالصبر معه راح بعدما شبت قدميه على الوقوف بجانب علية المجتمع، ورأت عينيه النجوم، ليصول ويجول بين مجراتها دون التحسب لأي منعطف أو منحدر قد يودي به هنا أو هناك، حتى ظن أنه أمسك بيديه هذا العالم، فراح يغزوه بكل ما أوتي من دناءة!

وما بين نزواته العاطفية، وكثير كثير من سقطاته الأخلاقية سقط! ومع تعدد سفراته للعمل مع الكثيرات تعددت خيباته، وخياناته لها. لذا لم يعد بقلبها متسع للغفران. بعدما استوطن هو طريق الرذيلة ما بين نساء، وخمور وعربدة فاجرة، لتتوقف إحدى محطات فجوره بالإسكندرية عند تلك المرأة المطلقة مرتين قبلا تاركة في كل مرة

فلذات أكبادها عند كل زوج سابق. لتتقاسم مع هذا العربيد بكل شراهة حياة المجون.

مرت فريدة بظروف نفسية سيئة فور علمها عن طريق زملائها بالعمل بكل هذه الأمور، ولجأت إلى الأطباء النفسيين الذين نصحوها مجمعين أن تبتعد نهائيا عن هذا العربيد كي تنجو بنفسها منه، ومن هذا الكم المفزع الذي بدأت تعتاد عليه من الأدوية المهدئة، فكلاهما سيكون له آثار سلبية على صحتها النفسية والجسدية.

فتطلب هي الطلاق بإرادتها الكاملة دون أن تدري أنه سبقها بخطوة الزواج من هذه المرأة، بعدما لوحت له بجنسيتها الأمريكية مغرية إياه أن يطلق زوجته بأبنائه، ليعد نفسه من بعدها لترتيب أوراقه للهجرة معها. ومن ثم يبيع أم أولاده التي اشترته، ووقفت إلى جانبه ومعها فلذات أكباده.

أما فريدة فآثرت السلامة راضية بأن الله أبعدها عن طريق هذا الشيطان، محتضنة أولادها منه، ثم متحملة وحدها مسئولية كبيرة في الإنفاق وحماية أولادها مبتعدة تماما عنه، ومفضلة إلا تتحمل أوزار خطاياه، محاولة الوقوف من جديد على أقدامها، لتواجه الحياة بأولادها ومسئوليتهم الكبيرة، متحدية كل الظروف، ولا جديد من أي مسؤوليات تفرضها ظروف الحياة عليها.

أليست هي المتواجدة دائما وقتما كان هو لا يثقل على نفسه؟! ووقتما كان دائم العيش لملذاته وفقط! فلم يكن أبدا هو ذاك الفارس الذي حلمت به، وأرادت أن تمتطى معه صهوة جواد أصيل، ليقتحما سويا أسوار عاتية غالبا ما تفرضها عليهم شراكتهم بتلك الحياة. وكما

فعلت هي معه قبلا حين أحبته بصدق، وآمنت به حتى صار من أكبر مديرين الإنتاج لأكبر المحطات الفضائية.

لكن فريدة كثيرا ما يزورها هذا الهاجس ثقيل الظل الذي ينزع منها أي شعور بالأمان، ويسكنها دوامات من القلق العنيف، ثم يطيح براحة بالها لتعيش على شفا الحيرة ومراتب الهموم.

وهذا هو اليوم الوحيد من أيام الأسبوع الذي يطمئنها إلى حد ما، ويخبرها أنها على وفاق مع نفسها، وبأن الدنيا لم تزل بخير. وبخاصة بعدما رفضت الزواج من ذاك الرجل الميسور الحال منذ سنوات قليلة والذي لا ترفضه كثيرات غيرها.

لكن هي بالذات متى كان مقياس التوافق بينها وبين من سيشاركها الحياة هو بريق الماديات؟! فهي لا تريد رجلا ربما قد يعينها وفقط على هذا العبء المادي الذي تكفلته بمنتهي الرضا. حتى صارت راعية للأولاد وحدها، وخاصة بعدما تخلى المتكفل والراعي الحقيقي. وهذا ما زرع في قلبها هذا اليقين بأنه لن يكون دخول هذا الرجل البراق حياتها كأب بديل لأولادها هو الأمان.

وأيا ما كان ما سوف يتراءى منه في البدايات فقد علمتها النهايات أنه ها قد تخلى عنهم الأب الحقيقي بمنتهي السهولة ورحل، فكيف لهذا الأب البديل أن يبقى؟! ليترك لها هذا الدرس القاسي رسائله العديدة.

ومن بين أهم هذه الرسائل أنها لم تعد تحيا في زمن النبلاء! والله وحده هو المطمئن، والقادر المقتدر، والمعين للخروج بالأولاد من هذا النفق المظلم لبر الأمان. وبخاصة بعدما طيب خاطرها بمنحها هذه الصحبة الطيبة من هؤلاء الأصدقاء، والذين صاروا من بعد تجارب

المواقف التي أظهرتها وتظهرها مليا عثرات الأيام، هم السند الحقيقي لها بالحياة بعدما تخلى للأسف أقرب الأقرباء فأختها الوحيدة للأسف أيضا كانت قد تخلت عنها، وعن والدتها.

وسافرت خارج مصر مع زوجها ابن الأسرة الأرستقراطية، التي قررت كذلك أن تهاجر من سنوات وتهجر الأهل والوطن، وأن تعيش لذاتها وفقط، فانتهجت الأخت نهجهم، وسارت على أنانية خطاهم، تاركة الحزن يأكل قلب أمها التي تجيء هي الأخرى إلى هنا بصحبة ابنتها فريدة.

فريدة؛ هي الابنة المخلصة التي تخاف على أمها، ولا تحتمل فكرة أن يصيبها مكروه لتجد الأم هي الأخرى العوض الحقيقي في ابنتها فريدة، وسلوتها الحقيقية في التغاضي عما حدث لابنتيها. هو هذا التجمع حنون القلب للأوبن داي.

عالية تنادي على نجاة...

نجاة عاملة مجتهدة بالنادي الكبير، اختارت أن تسكن هذه المنطقة الوسطى من اختيارات واختبارات الدنيا بالتعامل الواقعي، والجاد مع أبسط معطياتها. فلا هي مسرفة الوقوع حد الهاوية حين يميل بها الزمان فتسقط، ولا هي محلقة بأحلامها حد السماء حين تتراقص هذه الأحلام على الحبال الممزقة فتسقط.

هذا ما منحها هذه الحالة المتوائمة مع مجريات أحداث حياتها، إذ أنه مهما أسرفت الحياة معها في قسوتها. غلبتها هي بذاك الينبوع المتدفق حنان بقلبها، تماما كما هي الآن، فتجدها قد قاربت أن ينتصف بها العمر متأرجحا ما بين حلاوة ومرارة عيش الأيام.

وإن كانت الغلبة الدائمة لمرارة مذاق طعم العيش للعبة الأيام معها، إلا أنها لم تضعف يوما وتستسلم. فما زالت نجاة قوية وسعيدة تلك السعادة النابعة من الرضا واليقين بأن لله ما أعطى ولله ما أخذ، وبأنها لن تسكن دوما إلا مع أحلام البسطاء.

بسيطة الحال هي، والجمال أيضا. لكنها عظيمة وغنية المحبة للناس وللحياة على الرغم من التجاوزات الكثيرة التي حدثت معها من الناس ومن الحياة! فهي مثال صارخ للوجع الذي قد يلقى بطريق امرأة ظنت أن الزمن سيروق ويبتسم من بعد تكشيرة بائسة امتدت بطول وعرض سنوات أيامها اليتيمة في بيت أعمامها من بعد وفاة الأب، وزواج الأم.

ثم بُعد أمها النهائي عنها وهي ابنتها الوحيدة بالتخلي التام وهي طفلة صغيرة لم تتعد من العمر الخمس سنوات، لتتفرغ للزيجة الجديدة وأولادها الجدد من هذه الزيجة، لتظل نجاة وحيدة في بيت عمها تعامل معاملة السائلين الغرباء من بعد أن رحلت لمدينة أخرى هذه المدعية للأمومة والتي وهبها القدر نعمة من نعمه التي لم تصنها...

لم ترث نجاة قسوة قلب أمها، وعبقرية طي صفحات العمر مع قطعة بريئة من اللحم كانت يوما من الأيام جزء لا يتجزأ من لحمها ومن تكوينها الإنساني، فقد كان إرثها الوحيد الذي ما تناسته وما شاركها فيه غيرها هو الوجع الذي ظنت أنه سينتهي بزواجها من هذا الرجل الطيب والبسيط مثلها. إلا أن للوجع توابع لا تنتهي أبدا بفعل بعض معطيات الغلابة من مسكنات...

تجد أنهم يبقوا متحاملين على أنفسهم ومتحملين كافة توابع الأوجاع مهما كلفتهم فاتورة تحمل الألم، لأن توهمهم لأيام السعادة

المقبلة تجعل أمالهم العريضة في الشفاء تتراقص مسرفة في مضيعة الأيام على عتبات جراحهم بعدما أضحت وأمست تلك الأمال تلوح لهم بالأوهام البراقة! تزوجت نجاة قبلما تغلق باب العقد الثاني من العمر، هذا الرجل البسيط، والفقير في كل الأشياء.

كان يعمل ممرض بأحد المستشفيات الحكومية، لم تنظر أبدا إلى قبح وفقر تفاصيله، بل وعدت نفسها أنها تستطيع أن تهذب من مظهره الرث، ومن تفاصيله القبيحة، فأسلوبه كان مغاير لأحلامها البسيطة، لكنها فرحت بالراتب الشهري المنتظم رغم ضآلته، وراحت تدبر نفقات المنزل الشهرية بكل محبة وتفانٍ ليستمر الحال بهما ماضيا على بساط قلة الحيلة أو محاولات التعايش بتنفيذ وعدها لنفسها، فقامت بكافة مسؤولياتها على أكمل وجه بدء من خدمته ونظافة ملبسه ومأكله، وترتيب فرشته كأي زوجة بسيطة تتعاطى بحنان مع أبسط معطيات الحياة، وكأنها أعظم أسباب رغد، ورفاهية العيش.

اكتفت نجاة بمنزل بسيط فوق أسطح إحدى العمارات الفقيرة، وذاك الأثاث المستهلك الذي كان قد افترشه واستبدله الكثيرون قبلها، إلا أن هذا الترحال عند عتبات بيتها، فرحبت به، وأعادت له بلمسات بسيطة روح التعايش في سلام.

تمامًا كما فعلت مع زوجها رزق حين تقدم لها منذ خمس وعشرون عام مضت، وعلى الرغم من فارق العمر بينهما حينها وزواجه وطلاقه السابق، والذي لم يدم طويلا في كل مرة من امرأتين قبلها، تغاضت وما كانت تحسبها بعضهن وارتضت العيش بسلام أيضا، دون التعالي الغير مبرر من وجهة نظرها المعتدلة دائما، فما استوقفها هذا الفارق

في العمر بينهما. كل ما كان يستوقفها حينها قلة الحيلة التي قربت كثيرا بينهما فكلاهما كان في الغلب سواء.

رغم هذا الكم العجيب من كلمات التعجيز التي كانت تلقيهم على مسامعهم زوجة عمها، إلا أن أستقر بهم الحال بعد عدة سنوات بفضل بتشجيعها له فعمل عملا إضافيا، كي يساعد في تحسين الوضع المعيشي لهما. وبخاصة بعدما رزقا بابنهم الوحيد.

لم يكن يعلم بالبدايات أن الطبيب الذي كان يعمل بعيادته مساءا كان يقوم بأعمال غير مشروعة من خلال عيادته الخاصة، إذ كان يستغل حاجة الفقراء، ويقوم بتسخيرهم لبيع أجزاء من أجسادهم. فكان هذا الطبيب وسيطا لمافيا أطباء بيع الأعضاء البشرية، إذ كان يقوم زملاؤه الجراحون باستئصال إحدى الكليتين، أو فصوص من أكباد الفقراء، والذي تخصص في إمدادهم بهم هذا الطبيب مستغلا رزق زوج نجاة في استقطاب الغلابة من على بعض مقاهي الحواري والأزقة من بعد أن كشف له الطبيب كل أوراق اللعبة بعدما وثق به، لتنتقل أكباد وكلى الغلابة إلى أجساد الأثرياء...

وعلى الرغم من كل ذلك لم يشبع هذا الطبيب، وشركائه من الأطباء. كل هذا المال الحرام. إذ كان عمله هو كطبيب نساء وولادة فرصة كبيرة للنهل من الحرام، فكانت تجارته بأطفال أمهات الشوارع، وما كان من زوج نجاة سوى المزيد من الاستسلام لهذا الطبيب فسلطة أغراء المال الحرام كانت أقوى من أي فرصة للتراجع، أو تأنيب الضمير.

إذ كان كل خوفه فقط من علم نجاة، فكان يبعد جزء كبير من الأموال في مخزن سرى بأريكة كان أشتراها خصيصا لإخفاء المال الحرام. إلا أن حرم من طفله الوحيد ذات ليلة .

فجأة توفي الطفل دون أسباب. وفي لحظة حزن فارقة وقف فيها الأب مع نفسه أمام نجاة يتمتم ويهذي معترفا بذنوب ارتكبها في حق أمهات الشوارع؛ حين قام باستقطابهن للولادة في عيادة الطبيب بعيدا عن العيون، ثم يوهمهن أن الطفل توفي، ويقومان هو والطبيب ببيع الأطفال حديثي الولادة، وما كان من نجاة كي تثأر لقلبها وقلب الأخريات إلا أن أبلغت عنهما ليلتقيا وجها لوجه أمام القصاص العادل الذي يستحقانه جزاء ما فعلوا.

ومن وقتها جاءت للعمل بالنادي وصار كل أطفال وشباب النادي أولادها.

تطبطب عالية كعادتها على كتف نجاة وتبتسم وهي تستأذنها أن تكون بينهم حين يحل المساء للتحضير والاحتفال بعيد الميلاد. ثم تتركها عالية لتروح وتجيئ بمنتهي المحبة والرضا بين جميع المشاركات والزائرات للأوبن داي.

عالية؛ هي الأجمل أيأما والأوفر حظا بينهن. فزوجها رجل على خلق، ومكانة اجتماعية محترمة. فهو ليس من أولئك الذين لا يقدرون النعم التي قد منحت لهم على أطباق ذهبية حين أهداهم إياها القدر.

وهم ربما قد لا يشعرون بها بالأساس إذ أننا سنجد أنه مختلف، ففي كثير من المواقف كان وما زال رجل مسئول يحترم تفاصيل الحياة، فاحترمته الحياة، وأعطته رواءها. فهو غير هؤلاء الذين لا يدركون ما يعنيه ذاك الفارق الذي ما بين أرض نقف عليها، وسماوات رحب تسافر إليها أرواحنا. حتى قبلما تخطف أعيننا سماحة ألوانها. تلك السماوات التي تأخذنا لتلك الحالة الهائمة في ملكوت خالق النعم.

إنهم أيضا لا يستشعرون تلك الحالة التي تدعونا إلى مدارات تلفنا في رحاب تراتيل العاشقين، وتسبح فينا في فضاءات من محبة. أحبته عالية وأكملت معه رحلة الحياة بعدما تخرجا سويا من كلية الحقوق بتفوق. فبنيا سويا بيت يليق بحلاوة وهنى رفقتهم للأيام. إذ أنك لو وطئت قدماك عتباته، يأخذك حضن الدفء وفرحة بهجة الحياة الهادئة، فترى ذاك الركن الساكن في بيوت تخبرك أنها قد سكنتها الرحمة، فتجد عيناك تتراقص فرحا في ذاك الركن السابح في سعادة الأوقات، لتسير الحياة بعالية وزوجها في قافلة المطمئنين براحة البال.

افتتحت هي مكتبا للمحاماة متخصصا في شؤون الأسرة، وهو الأمر الذي جعلها قريبة جدا من رفيقات الصحبة في الأوبن داي. أما زوجها فانطلق إلى عالم التجارة، والأعمال، وأستغل إمكاناته ودراسته. وتخصص في أعمال السمسرة لتمر أيام السنوات بينهم هادئة. هانئة وينجبان خلالها ثلاثة أبناء في مراحل تعليمية مختلفة متفوقين. ينعمون بسعادة وراحة بال الأيام بين أحضان أسرتهم.

وها هي عالية لا تجد بعد ضغط العمل المتواصل ومسئولية البيت، والأولاد. شأنها شأن زوجات كثيرات، غير ذاك الهدوء الذي يلملم أحلامها مع عصام على جناح طيور السنونو. ليفرش لها الطرقات الملونة معه بزهور مبهجة للحياة.

إذ كانت محبته، واحتوائه، وهدوئه معها في معظم المواقف والأوقات كلها عوامل مغرية جدا بأن يصبح ويمسى قلبها مغرم بالعيش معه والبقاء بقلبه، أو ربما الركوع تحت أقدام محراب دنياه. فكأنها وحين تنظر لعينيه حين أتى إليهن الآن. يسألهن. ان كان ينقصهن شيء؟

قد اكتفت به عن كل الناس. حتى ما صار في هذه اللحظة بالدنيا غيره، فصار هو صحبة الليالي الدافئة. والأيام الحانية. وكل سنوات العمر هادئة وصاخبة الأوقات. وهذا بالفعل ما يتداركه الجميع. بأنها ما زالت عالية جميلة جميلات الصحبة والتجمع، فنظرة عينيها المطلة بكل هذا الحنان تشعرك أنها والدنيا على وفاق.

يحل المساء على الجميع مبهج يرتدى ثوب الاحتفال بمدام نيڤين. تجهز فريدة بهدوء طاولة خلفية بعيد عن عيون نيڤين للاحتفال بيوم ميلادها. أما ليلى وعالية فكانتا تتفقان بصوت هامس على الاتيان بالتورتة والشموع والمشروبات في هدوء تام أيضا بعد أن يصل أولاد وأحفاد مدام نيڤين.

إنها المفاجأة السعيدة التي حاولوا إخفائها قدر الإمكان عن صديقتهم الغالية.

تقوم عالية للاتصال بأولادها للاطمئنان عليهم، وتأخذ ليلى مقعدا جانبيا تحتسي فنجان قهوة، وتنظر إلى عيون ابنتها الوحيدة، وهي وسط صديقاتها بالنادي على طاولة بجانبهم ليضمهم حنان قلبها، ويتسع ليستوعب كل بنات الكون.

ابنة ليلى تشبهها إلى حد كبير. لكنها تنظر إلى القمر. وتستحلف السماء إلا تشبهها في حظها العاثر بالزواج. يتتبعها القمر وهي تنظر كالملاك البريء للسماء، وكأنه يخبرها بأنه قد وصلته رسائلها .. لم تزل رغم قربها من منتصف الأربعينيات تحتفظ بهذا القدر الكبير من الجمال الذي بدا ظاهرا للقمر، ليطل ويتباهى بين نجمات السماء، وكأنه يشي للنجمات بأنه لم يزل يتذكر عينيها، ليذكرها الآن هو الأخر بما كان!

تعود معه للوراء كثيرا لتقف عند كل ليلة كانت قد اعتادت فيها أن تسامره. وهي التي ما روادها ظن أبدا أنها حين كانت تسابق الزمن كي تستدعى مرافقته. كانت دون أن تدري تستدعى أوقات شديدة الأسى عبر سحابات صيف، وغيمات شتاء ثقيلة الأيام والليالي! لكنها ظلت تداعبه بعيونها التي خطف بريقها لون من ألوان السماء السبع ليحتضن أحداقها.

كانت أيضا تتعجله في كل ليلة بأن يغمض عينيه ويغفو كي تشرق شمس يوم جديد لتفتح ليلى صباحات عيون القلب فتطير مرتدية ثوب فرح تمنى أن يطيل البقاء عاشق على أرض ما كان يدري أنه لن تسكنها ملائكة!

كالفراشة الرقيقة كانت تهديه قبلة الحياة في كل يوم تصحو فيه ملهوفة لشوق رؤياه. في حين كان هو يرسل إليها أسهم كيوبيد البراقة لتقتلها خداع ثم تحيها زيف في كل يوم وليلة.

هذا ما كان يحدث كثيرا، سواء كان ذاك الاشتياق مسافرا زاده الخيال، أو كلما كان يجمعهم لقاء. إذ كانت تراه يشبهها في الكثير من الشكل، فراحت تتوهم أنه أيضا صار توأم التفاصيل!

فلو رأيتهم ذات مرة سرعان ما ينتابك هذا الخاطر الذي ينتاب الكثيرين كلما وقعت أعين أحدهم عليهم، وكأنهما متماثلان إلى حد كبير في هذا القدر من تشابه الملامح، وطبيعة التكوين، وكذلك النشأة.

جمالها الأنثوي الخاص كان يكمله وسامة رجولته إلى حد لافت للأنظار. فقد تجد أن لون بشرتها الخمري كان ممتزجا بذاك السمار الساكن وجهه كإشراقة شمس معلنة الوجود، ترافقهما زهور الياسمين التي وكأنها كانت قد أعلنت البقاء طوال العام على وجهيهما حتى من قبل الوجود!

أما طولهما المتناغم على خطو موسيقى التانجو، والتي كانا لا يألفان غير صحبتها. حين تتراقص معهم تلك الخطوات التي كانت وكأنها قد ارتسمت لها معه خطوات رحبة لمستقبل كان من المفترض أن يكون أفضل. وهذا ما كانت تظهره مؤشرات تجمعاتهم أثناء اجتماعات اتحادات الطلاب على مستوى الجامعات، إلى أن تخرجا في ذات العام.

عملت هي في مجال هندسة الديكور، أما هو فكان مستمر منذ الدراسة في مجال هندسة العقارات، والذي ورثه عن والده متشارك فيه مع عمه. الذي تولى تربيته من بعد وفاة أبيه، ليكمل حياته العملية في ذات المجال.

جميلة ليلى كقطعة ساكنة، ونادرة من الأنتيك كادت أن تنطق بالحياة، فهكذا كانت تبدو لمن يقدرون الجمال، لكن فؤاد كان من ضمن فريق أخر! فكلما كانت تقع عيناه عليها راودته غيرة وأنانية صبي وحيد دللته أمه وعاشت له، فظن أن هذا فرض عين على جميعهن، وأنه لا بد لهن أن تبقين متقوقعات على عتبات أسكن الغرور بها علياءه الضرير.

راح يدوس على قلوب بريئة كان كل صنيعة فعلها الطيب وذنبها الإنساني الوحيد أنها أحبته وأخلصت فراح يتسيد ويستبد حتى غلبه ظنه بأنها ستعيش وتموت هي الأخرى تحت عباءة علبائه الأعمى، فصار لا يبصر حتى تحت قدميه!

بعدما أقنع نفسه بأنه قادر على الاحتفاظ بها مدى الحياة في ثترينة فضيات أمه. تلك الثترينة هي الشيء الوحيد الذي كان متمسك به كجزء أصيل لا يمكنه الاستغناء عنه ضمن ممتلكاته الخاصة، وكأنها كانت

دائما تذكره بسلطاته المطلقة في الاحتفاظ بكل ما يريد. فظل محتفظ بها ماثلة أمام عينيه، تارك إياها قابعة على استحياء في مخادع حريم السلطان في هذا الجانب المتواري خجلا منه بنهاية حجرة الصالون.

أما ليلى فكانت تمنحه من مداد محبتها الكثير، آملة أنه شيء فشيء، ومع تخفيف ضغط مسؤوليات الحياة عنه سيكون لديه بعض من أوقات يطمئنها فيها بالدفء ويأويها بالاحتواء.

لم تدرك حينها أن هذا التمني بدفء المشاركة والاحتواء ما كان إلا من صنع خيالها البريء! وربما يصير يوم ما مفتقد على طرقات الحياة اللاهثة هي فيها وراءه دون التفاتة منه إلى أن تحققت نبوءة عرافة كانت قد قابلتها يوم معه على شاطئ البحر بالإسكندرية. حيث كانت العائلتان تقضيان أجازتهما الصيفية أثناء فترة خطوبتهما.

يومها تشبثت ليلى بعيون تلك العرافة، وكأن بهما شيء يجذبها إلى طريق اليقين المستشرف لمستقبلها الكسيح معه! والذي لم يكن يخطر لها ببال أبدا أنها ستقف يوم على عتباته متحيرة الخطى...

وشوشت الحجر حين لمسته يداها الرقيقتان بأمر العرافة، وأفاضت له بمنى الأحلام التي مررتها على شفتيها الدافئة بأمر الحب! ثم أعادته لها في ارتجافة تخشى البوح!، لتفرغ العرافة بعض من وشوشات الأمنيات في كلمات بدت وكأنها تهيأت للحكي. لكنها ما صرحت سوى بكلمات مقتضبة، وهي أن مداد مشاركة محبة الأيام والليالي بينهما ستكون كطائر هده الترحال رغم أن المدى قصير!

تمهلت العرافة. ثم أخفت بعضا من كلمات حين دقت على باب قلبها أحاسيس لين ورقة، وهي التي ما طرقت أبواب قلبها هذه

الأحاسيس إلا نادرا. فهذه النظرة الفارة والعابرة في رحلة انكسار خاطفة من عين ليلى قد حملت إليها رسالة رجاء، بأن تمنحها أمل في حق اللجوء العاطفي لأيام مطمئنة معه ما كانت أبدا شافعة! فنظرة عيون العرافة الفضاحة كانت سباقة وكاشفة فتسيدت الحيرة الأمال.

وبالفعل ما أكدته نظرة العرافة وكلماتها المقتضبة هو ما صار واقع تتعايش معه ليلى، فبعد مرور سنوات وسنوات ظلت هذه النبوءة شاخصة بينهما تفسر نفسها بنفسها، فجعلتها كالواقفة على جمر الليالي طيلة عشرتها القصيرة معه. فأغلقت كل الأبواب التي ظنت أنها ظلت موارية إلى حد ما، علها تفلح في رأب بعض الصدع الذي بدا يتمرغ هنا أو هناك محدثا أكثر من شرخ!

لكن وبمرور الوقت فتحت كل الأبواب، وصارت أعمدة وركيزة هذا البيت مهددة بالانهيار بسبب أنانيته، وتحميلها فوق طاقتها، وطاقة ابنتهم الوحيدة. والتي ظل يعاملها أسوأ معاملة وكأنها ليست ابنته، إذ كانت معاملته لها أشبه بمعاملة الجواري أيضا، مما كاد أن يودي بليلى لحالة من الانهيار إلى أن ترك ذات ليلة ذكرى مؤلمة، ورحل.

تتذكر ليلى تلك الليلة. حين قام بالتعدي بالضرب المبرح لها وابنتها، مع أبشع السباب والشتائم. وكل هذا كان لأنها قد ظلت مريضة لمدة أسبوع، وكأن ليس لها زوج بالبيت تستند عليه ويراعيها، خاصة أنها صارت وحيدة بعد وفاة الأب والأم، ثم بعد أن تماثلت للشفاء راحت تعاتبه بهدوء على هذا التصرف الغير إنساني، خاصة أن عاملة المنزل كانت مسافرة عند أهلها. فما كان منه إلا أن نهرها، وراح يلومها بصوت عالٍ على عدم عنايتها بالبيت، وترتيب أوضاعه قبلما تمرض! وأثناء مرضها!

وحين اندهشت من ردة فعله، واعترضت على كلامه الغير منطقي بالمرة، راح كالمجنون لحجرة ابنته فأيقظها من نومها ثم قام بجرها من شعرها، بل ومحملها المسئولية كاملة لما يبدر من أمها الآن من عتاب له، وأنه من الواجب على تلك الابنة البالغة من العمر أثنى عشر عاما التكفل بكل واجبات البيت من تحضير الطعام، وتنظيف المنزل، ورعايتهم، وأن تلك الابنة مستهترة! ثم قام بالخروج من المنزل بعدما هددها بقطع مصاريف البيت والزواج بمن تجلس تحت قدميه وتنجب له الولد الذي ما تمنى غيره.

وبالفعل قد فعل ذلك بعد أسابيع قليلة، فما كان من ليلى إلا أن قررت خروجه نهائيا من حياتهم وقامت بخلعه في المحكمة ونالت حريتها بالخلاص منه دون ندم. لكن ذكراه ظلت دوما مؤرقة لها على الرغم من أنه فارق بلا عودة!

ما بكت عليه لحظة، بعدما أبصرت قبل رحيله الأخير أنه ما أهداها سوى ألسنة من لهيب صارت بها كل مشاعر أيامها معه محرقة. بل وامتدت يد حرائقه العابثة، وطالت ابنتهم الوحيدة، فأبصرت منذ ليلتها تلك أنها ما كانت تجد بجواره سوى مزيد ومزيد من الإحباطات أثناء رحلتهم التي امتدت بأيام العمر ولياليه لأكثر من ثلاث عشر سنوات هي عمر زواجهما.

ومن قبلهم كانت قصة الحب الكبيرة التي عاشت لسنوات أضاع فيها المودة والرحمة الذي عاهدهما عليهما. وأنه كان دائما المتواجد صوريا أمام الجميع، والمتلاشي تماما أمام عينيها، وتلك كانت النهاية الطبيعية بعدما ظلت لسنوات مستسلمة تماما له. سائرة على شفا قلق الحياة معه. ولم تجد منه بالأخير سوى عدم التقدير.

يعيدها مشهد النهاية للبدايات والتي كانت فيها تختلق له الأعذار المتعددة، والمبررة لعدم تواجده في الكثير من الأمور الحياتية الهامة! مواسية روحها بإشغاله الدائم عنها، وعن ابنتهم الوحيدة التي كانت تعاني من حساسية بالصدر منذ طفولتها.

تحملت وحدها ليلى زيارات الأطباء، والتكفل بحالة ابنتها مشفقة عليه آنذاك من تبعية مسئولياته بمكتبه الهندسي الخاص، بل ومؤازرة له كداعمة لمستقبله المهني. خاصة بعد وفاة عمه، وتحمله مسئولية المكتب، متحملة هي كل المسؤوليات الخاصة بالبيت وابنتهم وما إلى غير ذلك من مسئوليات الحياة المتعددة الأعباء.

لكنه لم يقدر بعد وقت ليس بالقصير أي شيء، وكلما بدت عليه نعمة الاستقرار العملي والعائلي! بدا يتعمد التقليل من شأنها أمام بعض الأقارب والأصدقاء في أكثر من مناسبة عامة جمعتها معه، كي يشعرها بأنها لا تفعل أي شيء، وبالتالي هي لا تستحق أي شكر، أو أي عرفان! حتى فضلت الوحدة وكرهت التجمعات.

تفيق ليلى على صوت فريدة وهي تستدعى الجميع حول طاولة الاحتفال بعيد ميلاد مدام نيڤين. تنضم إليهم ليلى مرحبة بضيوف الطاولة، وها قد حضر أولاد وأحفاد مدام نيڤين، لتتم فرحتها وفرحتهم بكل من أحبتهم وأحبوها.

يحتاط الجميع، ويلتف حول هذه العيون والقلوب التي آلت إلى هنا وارتضت البقاء حول بعضها، لتطمئن ولينتهي يوم الأوبن داي على محبة كما بدء ليخبر الأيام ان تلك القلوب ما زالت هي والدنيا بخير.

***

براح عينيك

الزمان وناس كقمر يؤنس لياليهم، وهي تصاحب كف القمر.

المكان هادئ كرقة ترحال الملائكة بين قلوبهم، وهي تخط صحائف أيامهم الطيبة.

على شاطئ البحر عانقت عبقرية الجغرافيا ذاكرة التاريخ ليخط الزمان حكايات المكان بالمدينة الساحلية ذات الموقع المتميز لتتوسط المدينة قلب الكرة الأرضية. كما توسط مينائها قلب موانئ العالم. لتبقى بورسعيد دوما بالقلب.

تمر من خلال قناتها السفن، والبواخر العالمية. إذ أن الموقع يصل بعبقرية بالغة ما بين الشرق والغرب. وبالتالي عبور البواخر من خلال القناة صار ضرورة ملحة لتقصير المسافات ما بين موانئ العالم على بعد ينتصف المسافات بالحياة. تقف المدينة بمينائها، وقناتها لتقع الكرة الأرضية بأسرها في هوى المدينة. التي نقش التاريخ على مر السنوات حكايات الزمان على أرضها بحروف من نور.

المدينة متفردة بعبقرية المكان، إذ تغريك بشاطئيها الواقعين في قارتين مختلفتين. أن تقع في غرامهما لا محالة ففي قارة أفريقيا يغريك شاطئ بورسعيد الذي يعانق القناة في لهف على الجلوس أمامه بالساعات لتنسى كل الأشياء.

وعلى الجانب الآخر من القناة يمكنك أن تستقل معدية الركاب التي تعبر بقلبك. وتغازل عينيك. فترسم أحلامك سريعا على مياه قناتها

الرائعة. لتصبح في دقائق معدودة بقارة آسيا. مصطحب حلمك الذي سوف يناديك بالحنين لتلقى بأحلامك وحتى آلامك على شاطئ بور فؤاد.

المدينة بمينائها وشواطئها تشبه ناسها. في قربها من عرش القلوب، والبعد عن التطرف والشطط، إذ ترى الوجوه متقاربة، والنفوس متآلفة. وستجد انه لم يكن هناك فرق بين مصري، وأجنبي، إذ لم تكن الناس تعرف هذه اللغة القميئة. التي تفرق بين المصري المسلم، والمصري المسيحي. المجتمع بكافة طوائفه كان منصهر في بوتقة واحدة هي بوتقة الشعوب.

كان مجتمع الكل في واحد، ولم يكن يقبل سموم فكرة القسمة، أو عدوان التقسيم. فلغة السلام النفسي كانت هي لغة التفاهم السائدة بين كافة الجنسيات. فكانت ترسم ملامحها على كل الوجوه. بالمدينة التي تحمل دوما رائحة التاريخ.

حي الإفرنج... سمي هذا الحي بهذا الاسم نسبة إلى الفرنجة والأجانب من مختلف الجنسيات الذين كانوا يسكنونه بالمدينة أحياء أخرى كحي العرب، وحي المناخ اللذين كانا يقطن بهما معظم المصريين الذين كانوا قد آتوا إلى المدينة في بداية نشأتها من كافة المحافظات. وشاركوا بعرقهم ودمائهم في حفر قناة السويس.

كانوا بالبدايات يخافون السكن بالقرب من البحر عكس ما يحدث الآن. فالمدينة بموقعها الرابط بين القارتين كانت بالأصل جزيرة يحيط بها البحر. لذا كانوا يفضلون السكنى بالشوارع الداخلية، ويخشون السكن بالأماكن مترامية الأطراف بالمدينة الصغيرة.

وهكذا ظلت المدينة بكل فترات الانكسار، والانتصار، والانحسار، والرواج التي مرت بها. وحتى الآن، وبعد مرور أكثر من مائة عام جاذبة

لكل ابناء الوطن. توجد بحي الإفرنج الذي كان قديما للأجانب. ثم شيء فشيء صارت كل بيوته للمصريين. أجمل عمارات المدينة بتراثها المعماري الفخم قبل أن تمتد إليه يد العبث.

العمارات المطل بعض منها على الميناء، والقناة تجاور بعضها البعض في سلام.

بتلك العمارة الصغيرة التي تنتصف المسافة وتقترب بعض الشيء من الميناء. لتنتصف أيضا مسافات العشرة بين ناسها. باحترام شديد ككل الأشياء بالمدينة وقتها. فبالرغم من المحبة والقرب الذي يجمع سكانها. إلا انهم يحترمون خصوصيات بعضهم وينتصفوا دائما المسافات.

تتكون العمارة من ثلاث طوابق مميزة للناظرين بشرفاتها الخشبية البيضاء، وأعمدتها الخشبية الطويلة. وكم من الأوقات قد لفت انتباه القاصي والداني من المارة. هذا الرجل الأنيق. وهو جالس بشرفته بالدور الأول. مرتدى قميص بلون الياسمين الساكن بقلبه، وقلب تلك المرأة الجميلة الجالسة أمامه. تحتسى معه القهوة الصباحية باكر جدا.

تلك الزوجة التي كثيرا ما كانت تشي للمارة ملامحها بالأساطير الإغريقية القديمة.

بورسعيد... حي الإفرنج 1935... ليلة الكريسماس...

تتلألأ الأضواء الخافتة على استحياء، وهي تودع سنة ستمضي بحلوها ومرها بعد دقائق. وترحب بصوت أجراس آتت من بين جنبات شوارع المدينة على عجلة الأيام المبهجة. تلوح بفرح ما.

سوف يستقبله هذا العام الجديد.

فرح يوشك أن يعلن مع قدوم العام عن ميلاد جديد لحكاية من حكايات البشر. ودعوات من قلوب معلقة بالسماء الممطرة. وهي تنتظرهم بشوق ملهوف أن يرتدي الوقت الذي سوف يسكن أعمارهم القادمة حلة أيام الفرح.

موريس يخرج إلى شرفته النائمة في حضن الهدوء الدائم وقتها بالدور الأول. يرفع عينيه لأعلى يداعب النجوم، ويدعوها أن تحمل ما في قلبه وتودعه رسائل محبة بالسماء، وأن يرزق بمولود من زوجته الحبيبة روز داعيا لها بأن تكون هي والمولود بخير.

في البهو الفسيح.

يتبادل أصدقاء موريس التهنئة بقدوم العام الجديد. إذ انه في كل عام يدعوهم لقضاء سهرة أعياد الميلاد بمنزله.

سعيد جدا وهو يراهم من حوله سعداء يأكلون ويشربون، ويتبادلون القفشات، والضحكات المليئة بذكريات العام الذي سيتركهم، ويمضي بعد قليل. أخذا معه حقائب سوف يغلقها أصحابها على الكثير من حكاياتهم التي ربما لا يريدون فتحها مرة أخرى. ووجوه أخرى يائسة موريس لحالها، وهو يرى زائر الصمت يكاد أن يشي له بأحزانهم خلسة من وراء ظهورهم. أو ان أحدهم لا يريد أن يستوقفه الرحيل فبدا شريد وهو يتراقص على أنغام موسيقى التانجو.

موسيقى التانجو تداعب أقدامهم. عدا روزا وموريس رغم ارتدائهم الملابس التنكرية. لروميو وجولييت بالشقة المقابلة لشقة موريس يفتح الباب على مهل. لتخرج حبيبة سيدة جميلة. يتراءى من نظرة عينيها الناعسة على شط غرام زوجها مراد انها لم تلحق أن تسكن بعد أحلام صبايا العشرين.

يراودها سحر النداء. لكنها تنتظر حدث سعيد سيرافقها الأحلام مع رفيق المشوار. لذا تراها ترتدى له هذا الفستان الساتان الفضفاض ذو اللون الوردي، تتحرك ببطء شديد، وهي تتأبط ذراع زوجها الحنون مراد. يدخلون لشقة جيرانهم بعد ترحاب شديد منهم. ثم ينضموا لأصدقاء موريس لقضاء سهرة عيد الميلاد.

مراد، وموريس كلاهما مؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، والرسالات السماوية التي نزلت على الرسل كأهليهم. يحبون كليم الله موسى. ويفخرون أنه ناجى ربهم حين ناداه أن يأوي ويصعد ليحدثه من على جبل الطور بسيناء.

مراد. يحب السيدة مريم العذراء، وابنها المسيح عيسى الرسول. موريس. يحب رسول الله، وآل البيت، ويفخر بأن بين المسيحية، والإسلام نسب السيدة ماريا القبطية التي تزوجها الرسول محمد.

كلاهما تعلم، وعلم أولاده أن يعبدوا الله بطاعات تسكن القلب السليم. وتبوح بها الجوارح. فلا لسان يتطاول، ولا يد تؤذى، ولا قلب كاره للآخر. كلاهما كان يؤدى الأمانات إلى أهلها. ولا يستبيح مال، ودم، وعرض الآخر. كلاهما كان يؤدى صلواته، وعباداته الصادقة بمنتهي الحرية.

كلاهما مؤمن بيقين أن تلك الأرض التي جمعتهم، وجمعت قبلا أهاليهم هي الأرض المباركة التي يجب أن يتمسكوا بحبل الله جميعا للمحافظة عليها.

دقات الثانية عشر ليلا.

على الجانب الآخر كان الميناء يبعث لهم برسائل فرحة قدوم العام الجديد. فيدنو منهم. رويدا. رويدا بأضوائه المبهرة المتراقصة على

الموج. حتى صارا يرافقا مثلهم عقارب الساعة، وهي تطبق اليد على اللحظة. في ليلة ينثر فيها رحيق الود بالمدينة من كل اتجاه.

ها هم جميعا بالمدينة يتشاركون سعادة اللحظة مع قاطني العمارة البيضاء التي بها بيت موريس، وجاره العزيز مراد. عدا صديقهم، وجارهم الثالث أحمد. الذي كان يقطن بالدور الثاني.

يستوقفهم كثيرا هو وزوجته الودودة لزوجاتهم بكرمهما وطيبتهما. ثم هذا الكم الكبير من الإزعاج بصوتهم العالي، ومشاكلهم التي لا تهدأ منذ أن تهدأ سفينته التي يعمل بها بحري، على شاطئ المدينة حتى يعود ثانية يجوب ضمن طاقمها الموانئ. تارك ابتين وولدين لم يكن بينهم أحد هادئ سوى ابنته طيف صديقة ملك ورامي.

تتشارك المدينة أصوات أخرى مبهجة آتية من البواخر الواقفة بالميناء. وها هو صوت السرينة الآتي من باخرة إلى أخرى يشعل أجواء البهجة. ويذيد من روعة الشعور بالفرح. تشاركهم أيضا لحظات الفرح تلك الزينات المعلقة بالبواخر. وهي تحتضن في ود بليغ أعلام بلادها مع العلم المصري.

أما الأضواء المتلألئة فدوما تلوح بالشوق، النائم في دلال يداعب موج الليالي المسافر إلى النجوم، ليجاوروا القمر. ليحتفل الجميع بالعام الجديد.

بالبهو الكبير؛ تجلس وحدها حبيبة على الفوتيه الأنيق بصالون شقة جيرانهم الأعزاء. تشاركهم سعادتهم، وتنتظرهم ان يخرجوا من الشرفة. فهي على وشك الولادة. لذلك لم تستطيع أن تكون معهم بالشرفة الفسيحة. أما روزا رغم تعبها هي الأخرى. إلا انها انضمت

إليهم. بعد أن اطمأنت أن ابنتها سولا ذات الخمس سنوات. تغط في نوم هنى بغرفتها برفقة مربيتها.

يسمع مراد صوت حبيبة بقلبه رغم الصخب الدائر حوله بالشرفة الفسيحة. إذ كان يشاركهم متعة اللحظة. ثم يتركهم ويجرى ملهوف عليها، وهي تلقى بصرخات كسرت قيد هدوئها، وألقت برقتها خارج الشرفة. كما يلقي الآن أصدقائهم بالزجاجات الفارغة من الشرفة لتعقبها صرخة أخرى تأتي لترافق صرختها من جارتها العزيزة روزا التي تنتظر مولودها هي الأخرى.

وهكذا كان أول لقاء غرام لابن روزا وابنة حبيبة مع ميلاد أنفاس العام الجديد. لتعانق أنفاسهم البريئة دقات الخطو على باب الحياة في ذات اللحظة التي كان يتمنى فيها الجميع من السماء الخير الكثير.

وكأن رامي وملك ما تمنوا في تلك الليلة. سوى أن يتنفسوا محبة تلك اللحظة ليستمتعوا معهم بروعتها لتتسع بقلوبهم البيضاء المدينة الصغيرة. وتتحاكى هامسة عن الكثير من حكاياتهم. إذ كان دبيب خطواته الصغيرة. يمرح كل يوم بالأشواق في فوضى طفولية بين براح عينيها.

وشيئا فشيئا تمر الأيام، وورائها السنوات. التي كانت دائما تشي لطيور النورس أن تستدعيه من بين جميعهم. فيأتي ليخبرهم بريق عينيها حين تراه. أن جميع الأماكن بالقلب لن يشغلها مدى الحياة سواه.

لم تنسى المدينة الهادئة ان تدعوا السماء بأن يقبل الخير كل صباح فيفتح أبواب الرزق. ولا يغلقها بالمساء على من سكنوا بقلبها، واستوطنوا أرضها. فتجارة تموين السفن بالموانئ هي التجارة الرابحة بالمدينة، وهي التجارة التي يتشاركها موريس وجاره العزيز مراد لأكثر

من عشرون عام تسير بخير، فضلا عن أن الأسرتين تجمعهم أيام الجيرة، والعشرة الطيبة. منذ أيام والديهم. أما موج البحر المسافر في براح عينيها. فكان يأتي كل يوم، ولا يعود قبل ان يرسل مع طيور النورس وشوشات رحيل. لكنه لم يكن يعلم أين، ومتى سيحين الرحيل!

بورسعيد. 1950... ليلة الكريسماس...

تخرج المدينة لتشيح عن وجهها قناع الصمت الطويل الذي سكن طوال عام. وها هي الشرفات فتحت أبوابها الكبيرة الخشبية المكسوة بالزجاج الأبيض المنمق. وخرج أصحابها عن المألوف يستمتعون بطريقتهم الخاصة جدا بلحظة انطلاق مرة واحدة بالعام.

دقات ليل الثانية عشرة...

يلقون من شرفاتهم بالزجاجات الفارغة لتجد أن تلك الزجاجات الفارغة تسيدت اللحظة. وانطلقت تعربد تارة بالفرح، وتارة أخرى تترنح بذكريات عام. الكل اعتاد على ذلك. سواء كانوا أجانب أو مصريين من أهل المدينة.

إنهم يودعون العام مستشعرين انهم ألقوا بمواجعهم عن عام مضى بأحزانه. بداخل تلك الزجاجات. ليقذفوا بها من الشرفات إلى الشوارع. مستقبلين عام آخر. مهللين. ضاحكين. مستبشرين. بأن الآتي سيكون أفضل. ثم يأتي الصباح فلا تجد أي أثر لهذا العدوان المثير للجدل. فعمال النظافة بالمدينة قاموا بعملهم على أكمل وجه.

تلك العادة كان قد اكتسبها بعضهم من معاشرتهم للأجانب سواء الذين شاركوهم مدينتهم، وتقاسموا معهم الحياة. أو ممن هم على متن البواخر بالميناء. فهم أيضا بالميناء يلقون بالزجاجات الفارغة الآن.

فركاب البواخر بطاقمها يشاركونهم اللحظة من نوافذ كبائن البواخر، أو من على سطحها. قاذفين بالزجاجات الفارغة من كل شيء عدا حكاياتهم التي أرسلوها للبحر. بكل ما فيها من حلاوة ومرارة أيام، وليالي عام مضى.

يوم جديد...

تطل شمس العمر الجميل. بوجهها الحاني على ضوء نهار حالم. تستحلفه ان يبيت مساءه بليالي عشق لا تزورها كوابيس البعاد. ودقات أقدام بريئة تمرح أمام الشاليهات الخشبية التي افترشت من رمال البحر بيوت تطمئن. وبين أروقة الموج غزلت شباك الحب من الحكايات. ما ينبئ انها ما تمنت سوى أن يسبح عمرها بغرام يتغنى لليالي عيناه الصيفية.

رامي موريس صار شابا وسيما جميل الطول بهي الطلة أبيض البشرة. يعلم أن شعره البني المسترسل على عينيه يستهوي جميلات مدينتهم الصغيرة وأن أقبالهن عليه، وإدباره عنهن. كان يؤكد للجميع أنه ما هوى سوى براح عينيها.

إنها ملك مراد جارته التي رفضت انفاسها أن تشق صدر الحياة دونه في تلك الليلة البعيدة من ليالي الكريسماس.

صباحات صيفية...

يلتف شباب، وفتيات أهل الحي باكرا مع كل صباح صيفي. ليمرحوا مع طيف أيامهم التي لم يسكنها وجع. على شاطئ البحر. بعد عام دراسي طويل. لكنهم تلك المرة ذاهبين إلى شاطئ بور فؤاد بدعوة من أصدقاء الطفولة والدراسة القاطنين ببور فؤاد. محمود عباس وميري عطا الله فهما جارين منذ سنوات بعمارة واحدة خلف الشاطئ.

يعلم رامي أن ميري تحمل له مشاعر هو لا يبادلها إياها. تحاول ميري أن تثير غيرته عليها بطرق مختلفة. منتهزة فرصة وجود صديقهم عزيز مقار، وترافقه بأسلوبها المستفز للجميع. ثم أحيانا تتعمد مضايقة ملك بطريقة مستفزة أيضا ليأتي الموج زائر بشوق، ويعود راحل بحيرة لا يدري لها سبب. فلم تكن صحبتهم رغم كل شيء لا تعرف غربة المسافات.

بعد مرور عام.

ليلة سفر موريس وأسرته.

دون أي مقدمات تتعرض تجارة تموين السفن لبعض الأزمات المالية، وتمر بالصديقين أوقات شدة طاحنة. لم يروها من قبل. ليقرر على أثرها موريس أن يعود بأولاده إلى موطنه الأصلي باليونان. فلأول مرة يحثه شعور تملكه بالغربة بين أحبابه لأن يهم بالرحيل. لكن ابنته سولا تتمسك بالبقاء مع زوجها. فيوافق والدها على بقائها بمصر.

يودع مراد وزوجته، صديقه، وأسرته بقلب موجوع. أما ملك ورامي فكانت بينهما حكايات غرام. قرئها الأهل بألم لا يبوح ببراح عينيها وشوق عينيه. أما هم فتكتموا البوح. ووئدوا الحكايات في مهد البراءة أغلقوا باب الفتنة. ليغلق معها كل منهما باب قلبه على ما فيه.

تمر بهم السنوات تجتر وجع بعاد أودعوه شواطئ جريحة الهوى.

تارة تغلبها الذكريات البريئة فتصحو تروى ظمأ القلوب. وتارة يغلبها النعاس فتغفو في حضن الحنين. وكثيرا كانت تغزل من مراكب الصبر شراع ظنت انها من الممكن أن تداوى به جراح السنين.

بعد مرور السنوات...

اليونان؛ بلد جميل يشبه بتفاصيله، وتفاصيل ناسه مدن على موانئ مصر كالإسكندرية، وبورسعيد.

يتخرج رامي موريس من كلية الحقوق منذ سنوات. عاش فيها مع والديه باليونان. ويفتتح مكتب للمحاماة. متخصص في القانون الدولي، أما والده فقد استأنف عمله بتجارة تموين السفن، وازدهرت تجارته مرة أخرى. خاصة بعد إغلاق الممر الملاحي بقناة السويس لسبع سنوات متتالية هي فترة تهجير أبناء مدن القناة.

تمر السنوات... ويدب شيب الأيام بروزا، وموريس، يرافقهم الهدوء الجميل الذي يشبه إلى حد كبير. هدوء حياتهم الذي كان ببورسعيد، والذي لا يكدر صفوه سوى اشتياق لا يخلو من بعض زيارات بخيلة البقاء تأتيهم فيها ابنتهم سولا لزيارتهم باليونان. بصحبة زوجها الدافئة، والتي لم يعكر صفو لياليها عدم إنجابهم لأولاد.

تبادلت سولا وزوجها الغرام، ولم يطفئ شوق لياليهم. حرمانهم من ونس صحبة الأولاد. فقد اكتفيا ببعضهما. وارتضيا بالقسمة والنصيب فلم يخبرا أحد عن سرهم الكبير. ولم يعلم غيرهم من منهما العقيم.

تأتي سولا وتعود ما بين بورسعيد، واليونان بالهدايا، والرسائل المحملة بشهد الحكايات التي تطمئنهم على بعض، وعن أحوالهم في البعاد. وحكايات كثيرة محملة بالذكريات. بين والدها وجارهم مراد، وزوجته وامها روزا. لكن اشتياق الأسرتين لأيام الجيرة، والعشرة الطيبة. ظل حائر. مثل حب ابنهم المسيحي. لابنة جيرانهم الأعزاء المسلمة، والذي لم يكن أي شيء يخبر به. أو ينبئ عنه بين الرسائل إذ لم يتبادل رامي وملك أية رسائل. حفاظا على الكثير من روابطهم الغالية.

فكل الرسائل كانت قد خبئت، وطويتها السنوات في براح عينيها الذي أرتضى أن يعيش فيه دونها، وجعله أيضا ناجح، وراضي عن نفسه التي لم تجرح أحد، فكانت هي الغائب الحاضر. لكن الشيء الوحيد الذي كان يؤلم والديه، ويشى بالخبر. هو عدم رغبته بالزواج حتى تعديه العمر المناسب.

على الجانب الآخر كان انشغال ملك بدراسة الطب. ثم مواصلة الدراسة في مجال البحث العلمي. والسفر في منح دراسية لأوروبا، وإنجلترا. حجة قوية أرضت بها نفسها. وجعلت أسرتها ترضخ للأمر الواقع بالعزوف عن الزواج. على الرغم من الكثيرين الذين طلبوا ودها؛ وتقدموا إليها. ومنهم زملاء لها. للأسف لم تجذبها أي مشاعر ناحية أحدهم، أو غيرهم من أبناء الأقارب وأبناء الأصدقاء.

بورسعيد: 1967...

في غفلة من عمر الزمن ينقلب حال المدينة، وتتعرض مصر لانتكاسات سياسية، وحصار اقتصادي. لتدفع بورسعيد وشقيقاتها من مدن القناة الثمن.. ويقفوا فى وجه العدوان يحموا الأرض والعرض ويهاجر ابنائهم، تاركين أرضهم الحبيبة .. ليطفئ القمر ضي لياليه. وتغفو النجوم. في ثبات طويل.

تبقى سولا مع زوجها ولا تهاجر لليونان. فيقرر ابيها وامها وأخيها السفر لمصر والاطمئنان عليها، وعلى أصدقائهم. يتلاقى مراد، وموريس، والعائلتين بالمدينة. بعد أن رفض مراد ان يهاجر ويتركها، ليجد موريس ورامي أن الشارع القديم. ما زال يقف على قدميه، ولم ينكسر.

يتساءل مع ما تبقى من العمارات الصغيرة حائرا. أين أحبابهم ذهبوا؟ والأكيد أن تلك العمارات لم تعد تعلم عنهم أشياء. فلم

تعد تعرف أين هؤلاء الذين كانت تتبع عيونها خطاهم بكل محبة، وخوف عليهم.

لماذا لم يعد لهم سوى آثر طفيف. لطيف كان ينثر هنا يوم ما أشواق ملهوفة. تلك الأشواق التي ربما كان حنان خطوها لم تزل تراه يعدو هنا وهناك على تلال الحنين. لم تعد تدري البقايا ما الذي حدث؟

ولكن يظل السؤال لا يفارقها كما لم تفارق هي البيوت وجدرانها حتى تلك اللحظة الآتي هو فيها إليها. وهي التي فاض حزنها لسنوات بعد أن هجروا. ففرغ من حولها ونس الأحبة. وسمر الليالي.

لم تعد تدري البقايا هل هي التي كانت قد تحملت وحدها الكثير. مما طال المدينة الجميلة حتى دب الشيب في شعرها النائم على شواطئ الليالي. فتارة يغزل شعرا على ضفائرها المجدولة بالحنين. وتارة يطرح شباك شعره على البيوت التي لم يكن يدري انها ستخلو من الأحبة. لذا صار شيب الوحدة هو الرفيق. الذي هجر أكف كانت تلوح هنا يوما ما بأمنيات أمل في الحياة. فلا غرابة أن يكسو كل الوجوه الآن الرحيل. لكن هل استطاع أن يغزو الرحيل القلوب؟!

يقف هو أيضا حائر مثلهم. حائر كحيرة البيوت التي تبقت. ولم تزل تسكنها الذكريات كل السنوات التي مضت. منتظر ككل أيام العمر التي تسربت من بين يديه، وسقطت كأوراق الشجر. ورقة تلو الأخرى. دون أن يلمح طيف لها. تشتاقها الآن كما اشتاقتها كل لحظات سنواته. كل الأشياء التي أحبها معها فظل واقف.

يحلم بأن فتاته سوف تطل من نافذتها المطلة على شراع قلبه المفتون بها. الفارغ من كل أهل الحي عداها. يعلم أنه ما زال عند حيهم القديم.

عائد الآن بخطى مثقلة كانت هنا يوما. رشيقة تدب الهوى بكل مكان. وتجرى بلهف يسبقه الحنين. علها تلحق بها مع أول موعد غرام.

كانت قد أرسلته عينيه إلى براح عينيها؛ وهو يتتبع كل خطو لها كان يختال كل يوم على موعد ثابت. وهي تتأبط كراسة، وكتاب درس الرياضيات. ليعلنه هو بينه وبين ذاته موعد غرام.

تستوقفه رائحة المدينة التي امتزجت بها رائحة حقائب السفر الطويل؛ واللهث خلف وجع البعاد، لتخبره وهو يحادثها عنها. انه مهما أختلف الزمان. وتبدلت الأماكن. ستجد أن المدينة التي كانت تشبههم. قد طالها، وطال رائحتها الكثير من العبث.

لكن يظل هناك شيء ما. رغم كل هذا العبث ما تغير. شيء ذا بريق. يشبه ذاك البريق الذي كان يسكن تلك العيون. شيء ما. ربما يشبه دفء ليالي شتوية كانت تطوى بحنانها برد لياليهم. شيء ما. يقول عنه. انه ربما سوف يخبر عنا ذات يوم. ويخبر بأن ذاك التغير الكبير الذي طال الجميع. لم يزل به أشياء أخرى لم تطال بعض من براح عينيك.

أعلم أن هناك أشياء توارت إلى حين. أو انه من الممكن أن تتوارى للأبد. لكن مهما حدث. ستظل هناك أشياء غنية من تفاصيل حياة. ما زالت عالقة بالوجدان. أو مرسومة على الوشوش. التي كانت يوما ما هنا. تمرح في حضن الحواديت تحكي عن أيام من المستحيل أن تتكتم الخبر.

على العشاء... تتجمع العائلتين على العشاء بشقة مراد يتبادلون الحكايات حتى مطلع الفجر. الذي تسكن شوارعه دوريات الحراسة مع الثكنات العسكرية التي تملأ شوارع المدينة. فالمدينة وشقيقاتها مدن القناة في حالة حرب كتلك الحرب الدائرة على بعد مسافات قصيرة ما بين مدن القناة وسيناء تسمى بحرب الاستنزاف.

ولأول مرة يشعر رامي قبل عودته مع عائلته بالخوف من فقد أخته وزوجها، وكذلك تلك العائلة التي كانت وستظل عائلته الثانية. يخاف رامي أن يحرم من مدينته الأولى. وحبه الأول، والأخير. ويعترف كما تعترف هي أنه ربما أنهم ظلموا أنفسهم. بانغلاقهم. وإغلاق باب قلوبهم أمام الكثيرين. مما أضاع عليهم فرصة الارتباط، وحرمانهم من تكوين أسرة.

يكملون بها مسيرة حياتهم. ولكن ما حدث أن مضت بهم الحياة وحدهم دون تلك الأسرة. ثم يسأل نفسه سؤال جريء وهو: لماذا لم يغير ديانته ويعلن إسلامه من أجلها؟ ليعترف أنه ما أراد أن يترك والديه تعيسين بتلك الحياة، لتمضي بها وبه الأيام، وتتوالى نجاحاتهم بها، ولعل أحدهم كان يأمل أن يقابل يوم ما من يستحق أن يبنى معه أسرة.

بعد مرور شهر...

يترك لها قبل أن يعود لليونان كتابا لشعر نزار قباني.

اليونان...

يفتح رامي كتاب الشعر، ويقرأ.

الحب ليس رواية شرقية

بختامها يتزوج الأبطال.

لكنه الإبحار دون سفينة

وشعورنا أن الوصول محال.

هو أن تظل على الأصابع رعشة.

وعلى الشفاه المطبقات سؤال.

هو جدول الأحزان في أعماقنا

تنمو كروم حوله، وغلال.

هو هذه الأزمات تسحقنا معا.

فنموت نحن. وتزهر الأمال.

هو أن نثور لأي شيء تافه.

هو يأسنا.

هو شكنا القتال!!

...

بعد مرور السنوات...

تمر السنوات بالمدينة، وشقيقاتها من مدن القناة. ليعود الأهالي منتصرين على العدو الصهيوني. وتفتتح القناة ممر ملاحي للبواخر مرة أخرى، وتعود للمدينة خيراتها التي تعم على كل المدن، ويعيش المجتمع عصر الانفتاح بما له وما عليه. أما ملك فتبقى على حالها لم تتأثر بشيء مما حدث بالمدينة.

يوم جديد... يتوفي والد ملك بعد معاناة مع المرض، ويحضر رامي من اليونان ليعزيها ويعزى نفسه في وفاة أبيه الروحي، ليتذكر والده ووالدته الذين فارقوا الحياة، ويعترف أنه لم يتبقى له غير أخته سولا وبراح عيون ملك. يتقابل مع ملك ووالدتها، ويتناول في بيتهم الغذاء لتعود به أجمل ذكرياته إلى أروع أيامه. يسافر عائد لبلده الثاني، وعمله.

ثم يفكر بجدية أنه يرغب بالعودة للعيش بمصر. يقضى ما تبقى من أيام عمره في حضن براح عينيها. تسعد ملك بقراره. وتنتظر مجيئه يوم ما. ليكون الصحبة والعوض عن الأهل والعشرة الطيبة.

بعد مرور الأيام...

تغلق الهاتف مع صديقتها طيف، بعد أن اطمأنت عليها، وتعترف أنها كانت، وما زالت تستوقفها. بالكثير من التساؤلات عما فعلت الحياة بطيف. فهي جارتها التي كبرت معها، ورافقتها يوم. بيوم. أحيانا كان يأخذ ملك الشعور انه ربما كان من الخير لها إلا تتزوج مثل طيف. كي لا تكون قسمتها من الزواج متعبة التفاصيل كقسمة طيف، وكان خيرا لها أيضا أن تغلق حياتها على العمل، والدراسة. ولا تفتحها لصديق عدا طيف. كي لا يوجعها أصدقاء كأصدقاء طيف.

وكثيرا كان يزعجها أن تشعر بالوحدة لعدم وجود أقارب يزورنهم كأقارب طيف الكثيرين. فوالد ملك، ووالدتها. ليس لهما غير أقارب قلائل مقيمين منذ سنوات بعيدة في مرسي مطروح، ولم يلتقوهم سوى مرات قليلة جدا كل تلك السنوات. بل وتكاد تكون العلاقة بعد مرور السنوات غير موجودة.

تقف ملك مع طيف بشرفة منزلهم أثناء زيارتها لجارتهم العزيزة والدة طيف، ليجمع الحزن حقائبه، ويتوقف للحظة يفضفض فيها قبل أن يغلقها، ويلقى بها على محطات ليس بها رحلات عائدة. تفتح طيف قلبها. وتسأل ملك: لماذا اختارني الزمن كي يحملني مالا طاقة لي به؟ في كل من منحتهم محبتي وحفظت غيبتهم، وتمنيت لهم الخير. لماذا لم يبادلوني خيرا بخير؟

تعترف أنها تمتن لتلك الأكف التي صفعت وجه العمر لتقتله. لكنها خلقت من الموت المحقق على يديهم حياة. ومعتذرة لقلبها الذي كان يحضن بهم الأيام. فلم تكن تدري ان كل الأكف التي صافحتها بسلام.

كانت قابضة على يد حبيب تقتل بدم بارد، وأخرى تقسو. أو يد قريب تطعن في الظهر، وأخرى تحقد. حتى من ظنت انهم أصدقاء. كانت لهم أيدي تحرق بالغيرة وأخرى تستغل.

تمتن للحظة صحو. فتحت فيها عيون القلب عليهم لتراهم. قبل أن تمضي بها الحياة، وتتجرع كأس الحسرة بفوات الأوان. تمتن لقرار القلب الصائب بأن يأخذ كل منهم مقعده المناسب خارج حدوده، وبعيد بعد السماء عن الأرض من ملامسة الروح.

هكذا كان نصيب طيف من الحياة، وهكذا كانت ملك ترى في جارتها طيف نموذج قوى، لكن خسارتها الفادحة انها كانت تتعامل بقلب كبير. ومشاعر مرهفة.

لذا هي ممن تركوا أنفسهم للآخرين يفعلون كيفما شاءوا. كان بيت طيف بيت عجيب تملئه المشاكل بين والديها. ويملئه الحب والحنان أيضا. فعلى الرغم من أن والديها، كانا يثورا على بعضهما لأتفه الأسباب. إلا أنهما كانا حنونين كريمين على أولادهم، وجيرانهم، وأقاربهم، وأصدقائهم.

لم تعرف طيف معنى الحذر. أو الادخار. ورثت منهما الكرم والأمان المطلق للجميع. لم تعرف معنى إساءة الظن بالغير. أو النميمة على عباد الله. كما كان الجميع يفعل. كان قلبها مفتوح للدنيا كما كان باب بيتهم مفتوح للجميع. لم تعرف العقد النفسية لها طريق، وتعاملت مع المشاكل التي كانت تملأ بيتهم بروح طيبة. تطيب خاطر أيام الجميع من صغرها.

كانت ابنة تتوسط العمر بين ابنة، وولدين. كانت متفوقة بدراستها. أحيانا ترى أنه من الممكن ان تكون ظروفها هي التي جعلت منها انسانة

متزنة العقل والأحاسيس كما يراها معظم من حولها. كما أنه كان من الممكن أن تحولها ظروف أخرى أختل فيها ميزان العقل بعض الشيء إلى كائن آخر غيرها لكنها كان لها وقفة تحتسب لها لا عليها كي تعود بطيف.

لم يكن لها حبيب أو صديق كبقية الجارات والصديقات المراهقات أو في مرحلة الجامعة. كانت ترفض جميعهم على الرغم من جمال الملامح والروح. تزوجت زواجا عائليا لم يكن سعيدا. لكنه كان هادئا على السطح.

تخيلت أنها يمكن أن تصنع نموذج لأسرة ناجحة. فاحتوت الجميع. أسرتها الكبيرة، والصغيرة. لكن ما أحد احتواها. أو فكر للحظة أنها ربما تعاني من شيء ما. ما شعر بها غير أمها لكن للأسف في مرحلة متأخرة، وأبوها كان يحبها بشكل خاص لكنه ما شعر أنها كانت تعاني لأنها لا تشتكي.

كانت عكس أخوتها الذين كانوا يملئون محيط الأسرة بالشكوى، والمشاكل. لم يحترموا حنان والديهم. بل أنهم استغلوا عقلية أمهم وأبيهم الطفولية التي ربما كانت سببا رئيسيا في مشاكل أولادهم. لأن هذا الكم من الخلافات لا يخلق في معظم الأحيان سوى أبناء غير محققين ذاتهم، ومن السهل جدا فشلهم بتلك الحياة. خاصة مع تغير معدن الناس مع تغير ا لزمن، وصعوبة الظروف.

وقفت بجوار زوجها حتى حقق نجاحات كثيرة أضاعها كلها في لحظة سقطت فيها كل أحلام طيف من بين يدي الزمن. حتى أولادها

لم يحنو منهم عليها أو يشعر بها غير الأبنة الوحيدة . بين ولدين ظلوا في منتهي الأنانية.

تتذكر طيف ابنتها وهذا الحديث الذى دار بينهما ليلة زفاف إحدى بنات العائلة والتى كانت قليلة الحظ هى الأخرى بعد أنفصال ابويها

لتتسأل أبنة طيف عن سر هذه النظرة الحزينة التى تطل من عين العروس .. فتجيب طيف أبنتها ..وتقول

فى ناس فرحها عزيز

عزيز إزاى .. ياماما

عزيز .. يعنى قليل ياحبيبتى

وحتى ساعة مايجى .. مايعرفوش يحسوا بيه

مايعرفوش يحسوا بفرحتهم .. إزاى ياماما

ويعنى ايه ان العزيز قليل

هى الدنيا كده ياحبيبتى

كل حاجة عزيزة فيها قليلة

هتقابلى ناس كتير .. لكن اللى هايفرح لفرحك قليل .. واللى هيتألم للألمك قليل .. وعشان كده عزيز .

وهتقابلى ناس قلوبهم بطعم مرار وحلاوة الأيام .. ومع جرى السنين بيكى ، وجريك وراها .. أكيد هتقابلى شيء هيوقفك .. يمكن حزين .. ساعتها إياكى تزعلى .. لأنك فى اللحظة دى هاتدققى فى كل اللى فات .. وهتقدرى من بعدها تفرقى بين هناوة القرب .. وشقاه .. وتفرقى بين طعم القلوب .

ملك تمسح الدمع الذى أفسحت له طيف وسمحت بأن يفضفض بين مقلتيها . . وبينها .

ملك تحب إنسانية طيف التى أثرت فى أبنتها ، وانها بالرغم من كل شيء ما زالت تساند زوجها في محنته. وتصل الرحم في أدنى درجاته. وما عادت كما كانت فاتحة باب القلب على مصراعيه للجميع. تخرجان من الشرفة بعد اشتداد برودة الجو فالشتاء بدا يدق الباب وبقلب كل واحدة منهن أمل بالحياة.

***

أيام روح

(1)

القاهرة. خريف 2016...

قد نظن بالبدايات أننا ستأخذنا السنوات على جناح الود الدائم، وسوف نظل أصدقاء أوفياء مع هذه الحالة المصحوبة بالأمان، والاطمئنان لسنوات البدايات آملين أن تمنحنا الأيام دفئها مع كل دقة شمس يتنفس فينا النهار. ليشرق وجه القلب بضحكاته الصبوحة.

هكذا كان يتراءى وجه روح حين يتهادى رقيق الخطو على باب الصباح. وكأنها والصباح دندنا بصوت حنون على حبال الود الموصول بفعل المحبة، والمقطوع بفعل الظروف وغدر البشر: يسعد صباحك يا حلو.

حتى أنها والصباح قد ظنا حد اليقين أن صوتهما قد نسم على وجه القاصي، والداني بحلو الكلام رغم ما كان!

يمر الصباح في سكون هادئ. يشبه سكون مشاعر روح والتي باتت غافلة في حضن سنوات تيه الحكايات. تتهيأ روح للخروج لمقابلة مالك كما تعودا في كل مساء بنهاية الأسبوع. إنه وقت غروب الشمس الناعمة، وبزوغ ليل حلو النسمات.

وقد ارتدت فيه روح بلوزة من الحرير الأبيض. وجاكيت من التويد الكحلي. كي تتدثر به من نسمات ليالي خريف موسكو الباردة. مع هذا

البنطال من الصوف الرمادي. ثم تذلف قدميها بحذائها الرمادي الأنيق. بعد أن احتضنتهما بجوربها التل الأسود.

ها هي تهم بالخروج ممسكة بالبالطو الصوف الرمادي، وبحقيبة يدها المصنوعة من الجلد الطبيعي رمادية اللون أيضا كأيامها التي صارت.

وقبل أن تغادر حجرتها تمسك بزجاجة عطر إڤ سان لوران وإذ بباب الغرفة يفتح عليها. بعد أن دقت عليه تلك الأنامل الرقيقة والتي ما سمعتها روح. أنها أنامل شادن.

تدخل إلى الغرفة بهدوء لتحتضن روح. بعدما وقعت من يديها زجاجة عطرها على السجادة الشينواه الحمراء. أ ثناء فتحها الباب لتجدها تنظر إلى تلك السجادة، وكأنها تقول لها. أنت التي حميتي الزجاجة من أن تتهشم الآن. لكنك للأسف ما حميتي قلبي من الانكسار هناك وهو يتمرغ تحت قدميه. تماما كما يحدث في كل يوم لم تسعف فيه الحروف الكلمات لتبوح على شفاه روح بما تريد فتراها تهمس خجلي. بتمتمات لم يصل منها شيء. فتتسابق في لهف. ينطلق إلى قلب شادن لتخبرها الحروف، والكلمات. عما تتلعثم به الحكايات الحائرة بقلب روح.

وهكذا تستوعب شادن كعادتها مع تلك الحروف تائهة الكلمات ما تعنيه روح. فتمسك بيديها. وتقبلهما بحنان. ثم تأخذ منها بهدوء حقيبتها. وتضعها جانبا أعلى الكيمود الذي يلاصق السرير. قائلة: ممكن نقعد مع بعض شوية.

روح. تومئ برأسها في انكسار. ثم تجلس على الفوتيه الذي ترتاح عليه، وتجلس شادن بالفوتيه المقابل. تتوسطهم طاولة صغيرة، ويطل

النيل يؤنسهم من وراء شرفة حجرة النوم. تستند روح أكثر. وأكثر على الفوتيه. وكأنها تريد أن ستلتصق به التصاق علها تستريح مما يوجعها. ثم تمسك بيدها خصلات شعرها البيضاء المنسدلة برقة. مع بعض من بقايا خصلات بدت تلوح بالوداع لأيام كانت ملونة معه بوهج الحياة كم تمرغت بين أنامله على وجهها الخمري الرقيق، فترجعها للخلف. لتطل من عينيها السوداء الناعسة نظرة حائرة لا تعلم لمن!

شادن تنظر بعينيها المبحرة في شهد العسل الصافي لعيون روح، وتقول: إيه رأيك نشرب قرفة باللبن؟ أنت بتحبي تشربيها قبل النوم.

روح. ما زالت شاردة. تخرج شادن من الحجرة، وتتجه إلى المطبخ لتحضير القرفة الدافئة باللبن لهما.

صوت الموسيقى المنبعث من بعيد. يعانق تلك الرائحة المتطايرة بين أرجاء المنزل، والمنبعثة من تلك المبخرة الموضوعة بعناية على رخام المدفأة بالليڤنج روم. فيتسلل إلى مسامع قلب روح. حتى بدا يعزف هو الآخر على حافة التيه التي مكثت بها منذ سنوات هناك.

وكأنه يدندن على أهات جرحها المترنح هنا وهناك فتترك هنا. وتذهب وراء رائحة الذكريات هناك تصحبها أصوات موسيقى الجرامافون الملقى بحنين على جانبي الصالون من بعيد. فترى نفسها وهي تطير معه على أكبر مسارح روسيا. مسرح البولشوي ليتراقصا على أنغام موسيقى فيردي الحالمة. أوبرا عايدة.

تفيق على حرارة تصفيق الحضور الذي كان كفيل أن يبعثها من جديد مع تلك الابتسامة الدافئة وسط أجواء موسكو الباردة.

***

(2)

قصيرة كانت تلك السويعات التي كنا فيها ندندن آنا سعداء. وطويلة جدا دقات ساعات صرنا بها غرباء. تعود شادن إلى الغرفة. تحمل في يديها صينية صغيرة من الفضة. عليها كوبين من الكريستال كانا من مقتنيات جدتها نيروز. لتلحق على وجه امها بقايا ابتسامة دافئة قلما رأتها وهي مسافرة إليه.

تفهم شادن أين ذهبت روح فتبتسم لها بهدوء، ثم تداعب وجهها بحنان. وتقبلها. تبدأ شادن بالكلام. وتقول: جميلة ضحكتك قوى يا مامي. روح. تبدو سجينة البوح. لكنها طليقة الروح. فتحتضن ابنتها بدفء عينيها الناعستين.

شادن: روحت فين؟!

روح بحروف هدها الاشتياق، وتكسرت على عتباتها حروف الكلمات تقول: فين مالك؟! اتأخر قوى ليه؟!

شادن بابتسامة هادئة ما زالت على شفتيها تحاول أن تطمئنها، فتربت على كتفيها، وتهز رأسها في صمت كسير، كم أسكنه مرض أمها مدن الحيرة، فتصمت.

شادن هي الابنة الوحيدة لمالك، وروح عاشت طفولة لا يزور طيف أيامها ولياليها غير هذا البلد البعيد. كانت صغيرة جدا حينها. ولا تتذكر سوى أن أمها، وأبيها. كانا أجمل ما تقع عليه عينيها بالصباح والمساء.

تخرج شادن من حجرة النوم. بعد أن أغمضت أمها عينيها. فور الانتهاء من مشروبها الدافئ. وتتجول بالبيت الكبير. الفارغ ممن أحبتهم. لكنه يتحدث في همس عن حياة كانت هنا يوما ما، وملأته بحنان ما زال يتدفق في سكون ما بين شادن، وباهي، وروح.

لكن الحيرة ما تركتها وحالها. إذ كانت، وما زالت تشاركها، وتتلقفها ما بين الحين والحين وها هي تلقى بها من حجرة لحجرة أخرى. فتجيء الذكريات زائرة كي تنقذها من حيرتها، وتؤنسها لبعض الوقت. فتخرج بصحبتها للشرفة المطلة على النيل لتراهم جميعا.

القاهرة / 1995... حي المعادي...

تنظر لأسفل. لترى الشارع. وترى تلك الطفلة الصغيرة. تنزل مسرعة من سيارة كانت أقلتهم هي وأبيها، وأمها من مطار القاهرة بعد عودتهم من روسيا حتى توقفت تحت هذه الشرفة بهذا الشارع الفسيح بحي المعادي الذي كان يحتاط بدفء لا تدري وقتها من أين كان يأتي؟!

ثم ترفع الطفلة عينيها في براءة لأعلى. فترى سيدة جميلة ذات ابتسامة خاطفة. كانت تقف بذات الشرفة. التي تحتضن قدميها الآن. لتلوح لها جدتها نيروز بيديها في فرح ملهوف.

جدتها نيروز التي كان والدها يريها صورها قبل أن تأتى إلى مصر.

وهكذا استوقفتها جدتها منذ هذا اليوم الذي يعد من أهم المحطات بحياتها. لتظل هذه اللقطات المتقطعة تدنو، وتنأى بمخيلتها، كلما غلبها الحنين، وغاب عنها ود الأيام، فصارت لحظات الذكريات لأول لقاء بعائلة أبيها هي الأغلى منذ أستوقفها حرارة الدفء العائلي، وتلك الدموع التي ذادت بريق العيون جمال. والتي عرفت مع الأيام

أن تلك الدموع الغالية تسمى دموع الفرح، وعرفت أن تلك المشاعر التي عاشتها بينهم. هي ذاك الفيضان الحنون الذي يغمرها حتى تلك اللحظات. لتنهل منه، وتغدق على روح.

إنه الارتباط الأسري الذي يقوى الظهر. ويغرس أصول وقيم العلاقة كالوتد؛ لذا عاشت منذ أول يوم بينهم جميعا سعيدة تنعم بدفء العائلة، واستقرارها. إذ كانت طفلة ذات الخمسة أعوام حينها. بعدما عادت مع والداها من أوكرانيا. فالبيت بالأصل هو منزل جدها لأبيها دكتور أحمد عسران كبير أطباء الأمراض النفسية والعصبية بالقاهرة.

تتذكر جيدا جدها الطبيب الحنون، ولمساته الحانية على شعرها، ورحلاته الشيقة المثرية للعقل، والوجدان. حين كان يأخذها، وينطلقا معا في أوقات سعيدة بعيدا عن المنزل الذي كانت كل أوقاته سعيدة قدر الإمكان. فلم يكن لحزن الأوقات مكان به. سوى ما كانت تلمحه آحيانا بالعيون، ولم يكن مفسر لها حينها.

ثم اكتشفت أن حزن تلك الأوقات كان يصاحب النوبات الاكتئابية التي كانت تنتاب والدها. لتتدارك فيما بعد أن جميعهم كان يحاول أن يداريها عنها خوفا على مشاعرها الصغيرة. كي تعيش طفولتها بالشكل الطبيعي قدر الإمكان، حتى تخطت سن العاشرة. فاستوعبت. لكنها لم تكن تدرك لماذا كان هذا يحدث؟! أو كيف حدث؟!

استوعبت أيضا حين كبرت أن تلك الذكريات التي كانت وما زالت مع العرائس، والكمنجة، وزهور البنفسج. والمدرسة الفرنسية للغات التي كان أختارها لها جدها بمصر بعد موافقة روح. تعنى لها الكثير. فتقول حلمت مع العرائس. ودندنت بصوت شجي ترانيم روح، وأنا

العب معهم. عشقت الموسيقى. لكن ما فلحت في اللعب على اي آلة بها. على الرغم من محاولاتي الجادة في المدرسة. لأن اتعلم عزف الكمنجة. ولكني أظن أني كنت، وما زلت مستمعة جيدة.

أحب صوت الكمان، وأحب رائحة زهرة البنفسج. وأشعر أن بينهما توأمة روحية. فكلاهما به شيء ما. يعزف برقة على مشاعرنا وقت الحزن.

جرس باب الشقة يدق. تخرج من الشرفة. لتفتح الباب.

البواب: العيش، والزبادي يا مدام شادن.

شادن: متشكره يا عم جابر.

ثم تغلق الباب بالمفتاح. ككل ليلة ستغلق أبواب لياليها عليهم في سلام. تسير في حنان يناديه بشوق ملهوف. لتصل حتى باب الشرفة لتغلقه هو الآخر. ثم تخطو بقدميها إلى صالون البيت. وتتوقف عند هذا التابلو المعلق على الجدران. فهناك شيء ما دوما ما كان يربط بين هذا التابلو، وبين قوة عائلتها.

وهذا ما كان يتضح من كلمات روح حين كانت تحكى لها عنه منذ أن كانت طفلة صغيرة جدا حتى لا تنسى أنه لوحة زيتية كبيرة لمسرح البلوشي آتت بها روح معها من روسيا. كان رسمها لهما صديقهما الفنان والرسام ستيف كهدية لزواجهما. ستيف. كان من أعز أصدقائهم في موسكو .

تتذكر شادن وصف روح لها عن جغرافية المكان. الذي كانت قد عشقت العيش به لسنوات، وكأن صوت روح وهو يصف بلدها كي يربط شادن بجذورها الممتدة هناك. قد عادت له حدوده وقتها لتقف

عند ذاكرة الجغرافيا، وإنسانية التاريخ؛ بخاصة حين كانت تحكى لها عن حياتها مع أبيها بموسكو كراقصين للباليه، وقبل أن ينتقلا ل أوكرانيا.

تصف روح مسرح البلوشي فتقول: أنه على بعد خطوات من الكرملين، والميدان الأحمر. يقف مسرح البولشوي شامخ في وسط الميدان. أنه واحد من أبرز معالم حضارة تاريخ روسيا الإنساني. منذ أسس في عام ألف وسبعمائة سبعة وستين.

ثم تشرح لها بكل فخر ماذا يعنى هذا الاسم مسرح البولشوي. إنه يعني الكبير وهو يتصدر ميدان المسارح، ودائما أبدا كان ولا يزال شاهد على العصر، ومقياس لازدهار الفنون ورفعة الدولة، بل وسيظل هذا المسرح شاهد تاريخي لتقلبات الدهر ونوائبه.

***

(3)

موسكو شتاء 1985...

تتحلى موسكو كعروس في ليلة الزفاف بردائها الجليدي الأبيض. فتزداد جمال وبهاء وكأن موعد لقائهما الذي رتبت له الأقدار. كان وكأنه ليلة العمر. إذ سافرت بعثة بإليه دار الأوبرا المصرية لحضور الاحتفال الكبير الذي يقام في موسكو لمدة أسبوعين، تتخللهم العروض الكبيرة من خلال التقائهم وفرقة بإليه مسرح البيلشوى الروسي. مع فرق عالمية أخرى دعما للثقافات بين الشعوب، وتقارب الحضارات. ليصير لقاء مالك، وروح الأول في تلك الأثناء كلقاء السحاب.

ثم تعقبه لقاءات من بعد ذلك على هذا المسرح العريق كأبطال لفريق مسرح البيلشوى. لتحكي عنهم لغة خاصة تنبع من أعماق الروح. تتحدث نغم هامس يصاحب القلوب. فتراهم حين كانوا يعتلون المسرح، وكأنهم يحلقون بك عبر مدارات القمر. فتصاحب معهم النجوم. وتهيم بك مدارات الكون معهم. لتسافر ذادك الخيال.

ثم تصل حيثما تحب أن تكون. ولربما تكون أنت هنا بمكانك قابع على مقعدك، وما أن تقع عينيك عليهما. إلا وتحدث بينكم هذه الحالة من الانسجام الرقيق. والالتحام الدقيق. كتلك الحالة المتناغمة ما بين الجسد، والروح.

تجد نفسك تذوب معشهما كمثل ذوبانهما الرائع بالموسيقى، وتحلق مثلهما فتسابق النجوم، فتجاور القمر. مما يخلق بداخلك طاقة روحانية عالية الإبداع تطيب معها ولها تراتيل الروح. لذا كانت هي روح. وكان هو مالك القلب والروح. تماما كما كان هذا المكان مسرح البولشوى هو ملاذ قلبها، وعشقها الأوحد منذ نعومة أظافرها لفن الباليه. والذي أهلتها له أمها كارين ستيف روسية المولد، والنشأة. حيث حرصت على أن تلتحق ابنتها بمدرسة الباليه الروسي، أما أبيها مراد العلايلي الضابط المصري فكان مشجع، ومولع أيضا بتلك الفنون الرفيعة كالباليه، والموسيقى...

كان حريص على الحضور الدائم معها رغم انشغاله بعمله الذي كان قدرا ما بين القاهرة، وروسيا أبان فترة الخمسينيات من القرن الماضي. حيث التقى والدة روح بذات المسرح أثناء مشاهدة إحدى عروض البيلشوى. فأحبها وتزوجها وأنجبا روح في العام 1960 الميلادي.

وهكذا كان البيلشوى، وكانت موسكو مسرح الأحداث، وميلاد لهذا الحب المتوارث المعالم على خريطة زمان ومكان الأيام. والذي جعل التاريخ يعيد نفسه فيما بعد معهما فهما كمثل أبيها، وأمها الذين التقيا قبل الأوان بأوان. وكأن لقائهما كان قبل أن يدق القلب دقاته على باب الحياة، ويزف خطواتهما الرقيقة على هذا المسرح العريق.

هذا المكان الذي عشقت هي المكوث به منذ نعومة أظافرها. لكنها لم تكن تدري أن هناك عشق آخر ينتظرها به ليسافر بها عبر مدارات عشق لا نهائية. ليس بها أي محطات للمكوث. أو أية أماكن للرحيل. لتصير طائر مغرد بدنياه. لا تقف على أرض غير أرضه. ولا يكون لها وطن سواه.

1985... المسرح الكبير البيلشوى... قاعة الاحتفالات...

تحاول أن تبتعد قليلا بهدوء، كي لا يشعر أحدهم بأنها تعي لغتهم العربية، وتفهم همساتهم عنها. وعن فرقتها. وعن انبهارهم بالمسرح، والقاعة، والراقصين. فتطير روح لتقف كالفراشة على أعتاب الشرفة الزجاجية المغلقة. المطلة على ذات القاعة. رفعا للحرج عن فرقة دار الأوبرا والباليه المصرية. خاصة أنهم حتما أن آجلا، أو عاجلا سيعلمون أن نصفها مصري، ونصفها الآخر روسي.

على الرغم من أن أهل البيلشوى يتناسون أمر نصفها المصري تماما. لأنها بالفعل روسية المولد، والنشأة، واللغة مثلهم.

الشرفة جاذبة جدا بزجاجها الملون، وبتلك الأضواء الخافتة، والموسيقى المنبعثة من بين جنباتها. حتى يخيل لك وأنت تراهم من خلالها، وكأنهم رهبان في حرم الجمال.

تناديه تلك الشرفة هو وحده من بينهم. تماما كما كانت تناديه عينيها بتلك النظرة الهاربة منها إليه ما بين الحين، والحين. دون استئذان منها.

فلطالما أرادت أن تطل هي عليهم من بعيد بابتسامة ناعمة. لكن نظرة عينيها كانت تفر منها، وتذهب إليه دونهم على استحياء.

بعدما آثرت هذا الانسحاب الهادئ، وبعد أن قامت بواجب الضيافة مع زملائها أعضاء فرقة بإليه مسرح البيلشوى. مرحبين جميعهم بود لطيف بفريق دار الأوبرا المصرية فهذا كان يوم التقائهم بفريق دار الأوبرا المصرية. ثم تناولهم معا المشروب الرسمي لدولة روسيا قبل العشاء. والذي أعده المسئولين عن إدارة مسرح البيلشوى.

كانت روح قد بدا عليها منذ الوقوف بينهم هذا الخجل الشديد. خاصة في مواجهة كل هذا العدد من الحضور، على الرغم من أنها بطلة فرقة مسرح البيلشوى.

لكنها ما تعودت منذ أن كانت طفلة صغيرة سوى أن تحلق بسماء البيلشوى، أو أي من سماوات كبرى المسارح العالمية التي كانت تسافر إليها مع فرقتها. فهي تحلق بعيد كالفراشات. لذا لا تستهويها لغة الكلام. فهي صاحبة اللغة الخاصة.

ورغم مواجهتها على المسرح لعدد ليس بالقليل من البشر. تجدها أثناء العرض الراقص لا تخجل من أحد أبدا. أنها بحقيقة الأمر لا ترى أحد. لأنها لم تكن بينهم سوى بالجسد. أما الروح فقد انطلقت مسافرة ومحلقة بعيد. بعيد. كبعد السماء عن الأرض التي تجمعهم.

يلمحها مالك فتخطفه من مكانه على أرض قاعة الاستقبال بمسرح البيلشوى ليطير هو الآخر ويحلق معها بعيدا عنهم! فعينيه لم ترى سواها منذ اللحظة التي حل فيها ضيفا عليهم مع زملائه!

لكنه ظل ثابت بمكانه. رحب بها بإيماءة خفيفة من رأسه. وسلام صامت الهمس من يديه. مكتفى أن تحتضن عينيه تلك النظرة الهاربة

منها إليه دون استئذانها. حتى بعدما بعدت بهدوء، كان يشده إليها هذا الرداء البسيط من الشيفون الأسود والذي كان يتطاير هو الأخر، ويفر ما بين لحظة وأخرى في خجل من خلف البالطو الأسود الفرير الذي كانت ترتديه، ويتراقص بشعرها المتموج والمنطلق بحرية.

كل هذا كان ينفي تماما هذا القيد الذي كانت تفرضه يديها على ثوبها المتحفظ تحت البالطو المفتوح بوقار، والذي كان يشبهها، ويشبه ما فرضته هي بلطف على جميعهم وعلى هذا اللقاء. إذ قد بدا واضحا على وجهها باقترابه منها. أنها لا تشبههم. لا بالملامح، ولا بالروح!

ينظر إلى عينيها السوداء فيندهش بتلك العيون المختلفة، وهذه البشرة الخمرية المختلفة، وهذا الشعر الذي أنطلق رغما عنها بحرية كثوبها رافضا قيد صرامتها، وصرامة أهل مدينتها! فتشده اندهاشه بها إلى الأعماق. ليغرق في بحور حيرته دون أن يدري أي سبب هذا الذي أجبره على تلك الحيرة!

وقبل أن يقبل عليها بأي كلام. يفيق معها على صوت أحدهم الأجش. يستظرف بلغة روسية ركيكة، وكأنه يرحب بها. ويقول. فيها شعر متصنع. شاذ الكلمات!

***

(4)

أنه التينور فؤاد نصير المغنى الأول، والأشهر بالأوبرا المصرية. والذي ما أن وضع قدميه قاعة الاحتفال الخاصة بمسرح البيلشوى في هذه الليلة. كأحد ضيوف أفراد فريق دار الأوبرا المصرية. إلا ووضع

قبلهما عينيه الفارغة من كل شيء عدا أنانية القلب وقسوته على روح فحلم بسرعة البرق ا نها ستكون يوما ما امرأته هو، ولا أحد غيره.

فهذه هي المرأة التي طالما كان يحلم بها! وها هي أمامه الآن برسم، وملامح ما تمنى.

فؤاد. يبتسم في تصنع، ويوجه كلماته لمالك بنفس أسلوبه الصفيق. لكن هذه المرة باللغة المصرية. بعد أن لم تعره روح أي التفاتة لكلماته الركيكة، والتي كانت من لحظات ليقول: أنا شايف يا مالك أن الجو هنا عجبك قوي مع أنه بارد زي التلج.

فهم مالك أن فؤاد غاضب. ويقصد بهذا الكلام الاستهزاء من روح. وبهذا المقصد بالذات من معنى البرود، بعدما لم تعره اهتمام.

مالك: التغيير أفضل، ومطلوب يا فؤاد. وعموما كلها أجواء لطيفة.

فؤاد. لطيفة. هي بئت كده. ماشي يا مستر لطيف. هههههههه.

مالك. يبتسم في هدوء وخجل شديدين، وينظر لروح نظرة المعتذر عن صفاقة الأخر، وتطفله على تلك الأجواء، والذي اختصهم فيها وحدهم نداء هذه الشرفة ليجد دهشة كانت تكسو وجهها، وتكاد أن تهرب الآن قبلما يلمحها أحدهم. وتتساءل بين نفسها في حيرة لأمرهم، وأمر سذاجتهم.

وتقول: ألم يقرأوا اسمي بدقة كي يستشفوا منه شيء. ومن قبله لماذا لم تستوقفهم أي قراءة عني؟! يا لسذاجتهم!

ثم تنصرف من الشرفة وتتركهم بهدوء. ليبقى بالشرفة مالك وفؤاد وحدهما مفتوحي الفم، والأعين كالبلهاء!

ثم يضحكان ضحكة هيستيرية في ذات اللحظة بصوت عال، وكأنهما أدركا أن روح تركتهم معا، وفلت من غبائهم! لكنهما لم يدركا أنها تفهم كل كلمة تفوها بها!

وما أدركت روح أن وقفة ثلاثتهم بالشرفة. كانت استشراف لمستقبل سيجمعهم وقت ما، وبمكان ما، وأن أحدهم سيودي بحياتها لمنحدر سيقف عمر أيامها باكر.

ذاك المنحدر الذي ترنحت عليه الحكايات بعد سنوات بعدما كانت ذات يوم تتراقص حانية بين يديها ويديه. فما الذي عساها اليوم. وهي تلوح من بعيد وتعصى المجيء بهناوة الأيام؟!

وأن أتت ما بالها اليوم تهرب من بين الحروف، وترتعد على شفاه كم كانت تتغنى يوما بالغرام. وكأن تلك الأشواق التي كانت تتدلل بحنين يذوب في لحظة اللقاء. صارت ذكراها كل يوم بحال. رغم ارتياد القلب في كل ليلة مزارات الهوى، واعتياده الغفو بمطارح العشاق.

بعد مرور أسبوعين...

القاهرة 2105

تصحو روح كعادتها مع وشوشات الطيور. وضحكات الشمس الصبوحة. حتى وان امتلأت جنبات أيامها بالتيه وسط غيوم الذكريات. تخرج إلى الشرفة. وفي يديها فنجان قهوة. يذكرها بحلو الأوقات التي كانت ولن تعود. تنظر بعينيها الحالمتين به دوما. لتجد طراوة نسمات النيل وكأنها كانت تناديها من ليالي الأمس. ان تلحق بمراكب العاشقين، وتعود معهم إليه هناك. على أشرعة من حنين.

موسكو 1985

بعد مرور أسبوعين...

انتهت أيام عروض فرقة بإليه دار الأوبـرا المصرية. وتحقيق نجاحات مشرفة أبهرت جمهور الحضور، والنقاد بعد أن كتبت عنهم كبرى المجلات المتخصصة في روسيا. وبخاصة عن قوة عرض أوبرا عايدة والقائمين عليها جميعا، وكذلك الإشارة إلى أنه لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعتلي فيها أبطال فريق دار الأوبرا، والباليه المصري مسرح البيلشوى.

إذ قامت الأجيال السابقة قبلا بتقديم عروض عالمية مشرفة، وعظيمة. مثل: بحيرة البجعة، وغيرها من العروض الرائعة على امتداد سنوات سابقة كان فيها التعاون مثمر وبناء بين الدولتين.

كذلك كان من الممتع ما قدماه خلال هذه الفترة مع فريق الباليه الروسي سويا. إذ تعاونوا وقدموا رقصة شرقية من باليه كسارة البندق والتي تميزت بالإبهار في الاداء الحركي للعارضين، وبخاصة أداء مالك أمام روح. والذي بدا من خلاله مدى الاندماج، والانجذاب الحسي، والحركي بينهما. كل هذا كان قد أثرى العرض. إلى جانب التميز في الملابس، والأكسسوارات ذات الطابع الشرقي.

الليلة الأخيرة للفريق المصري بموسكو أثناء فترة إقامة الفرقة بموسكو شرع مالك بتقديم أوراق ألتحاقه للدراسة الأكاديمية بروسيا، وكان الدافع الأول له هو هذا العرض الذي تلقاه من مسرح البيلشوي بالاتفاق مع دار الأوبرا المصرية.

وكأن الأسباب اجتمعت حتى لا يفترق عن روح. بعد أن عاشا سويا بالأسبوعين الماضيين. أجمل قصة حب كان قد رسمها القدر بريشة

الأيام، وعزفت موسيقاها الحالمة ليالي الود التي جمعت بينهما ما بين كواليس ومسرح البيلشوى. إلى أن تم الزواج في العام التالي.

***

(5)

موسكو 1986...

لم تكن تدري روح أن هناك إشارات كانت قد لاحت لها في الأفق. مع بعض من مؤثرات موحية كانت تسير برفقة تلك الإشارات أمام عينيها في رحاب من مشاهدات كانت تبدو ملائكية الترحال.

حين تمر على عتبات مشاعرها، وتترك شيئا ما لم يكن مفسرا حينها! لكنه كان ما اكدته أيامها فيما بعد. فتراها كم من مرات كانت تقف هائمة. صامتة أمام هذا التمثال الرائع للمثال الروسي نيكولاي نيكوجوسيان.

كان هذا التمثال به شيء ما لا تدريه يشدها إلى فضاء بعيد. إنه تمثال البالرينا الشهيرة مايا بليستسكيا ملكه مسرح البولشوى. والتي كانت قد قدمت أروع الكلاسيكيات في زمن قبل زمانهم.

روح تعرف نفسها جيدا، وتعلم انها يستهويها الخيال. لكن هذا التمثال الرائع بالذات كان يأخذها بعيد. بعيد. ويطوف بعقلها يطرق على بوابات السؤال. ثم يتركها، ويرحل. دون إجابات.

أما ما كان يطوف بمشاعرها، ويخطفها في رقصة من رقصاتها الحالمة ثم يجوب بها بين جنبات هذا الشارع العريق والفسيح المطل على مسرح البيلشوى، ويضعها على حافة جسر التيه وكأنها صارت في لحظات كذلك التمثال.

هذه الطلة التي تظهر بها مايا والتي نحتها ذاك الفنان بأنامل من حرير. لعيون البالرينا والتي كانت تحكى الكثير. من خلف هذا الصمت المغمض العيون على حكاياته. وكأنه يفصح كم من المرات كان قد أبحر هذا الفنان بعيون تلك المرأة. ويحكي للقاصي والداني عمق مشاعر هذه البرميرة العظيمة، ويفسح القول أمام الكثيرين. ليراها كل منهم بأبداع خياله.

كم تمنت روح في كل مرة وقفت أمامها بأن تصبح يوما ما مثلها، وتقبع كمثلها في أحد ميادين مسرح البيلشوى. أو تقف على أطراف أصابعها محلقة كالفراشات، وتصير تمثال منحوت بهذه الروعة في إحدى أروقة البيلشوى.

كان هذا التمثال بالذات يعد من أكبر الأشياء التي أثرت كثيرا في مشاعرها. فتراها كانت تقف في ليالي كثيرة عندها. وتنظر بعمق إلى مايا وتزيح ستار الحكايات. لترى ما تخبئه عينيها المغمضة من مشاعر كثيرة لا تعلم عنها روح غير شيء وحيد. وهو ان هذه البريميرة كانت قد أودعت القلب والروح عشق هذا الفن السامي وتعالت به عن كل الصغائر.

تطيل النظر إليها أكثر، وأكثر. وهي تتكئ شبه جالسة بنصف جسدها العلوي على تلك الربوة، والتي نحتها هذا الفنان باحترافية عالية كقاعدة للتمثال. لتتساءل روح في شرود. لماذا آثرت مايا أن تجلس هكذا أمام ذاك المثال والعالم؟!

ولما لم تكن واقفة كي تحلق كالفراشة الطائرة؟! لتصل لروح الإجابة صامتة عبر أحساس خاص، وغامض يربطها ب مايا. فتشرد. وتتوه أكثر، وأكثر لتطبق الروح على تفسير، خاصة وأن مايا تظهر

هي الأخرى شاردة. ثم تدهشها مايا وهي ترفع رأسها بإيماءة رقيقة. ليرتفع عنقها الجميل بدلال. فتبدو جميلة كالملكات بتسريحة شعرها المرفوعة لأعلى والمنمقة بهدوء. وكأنها كانت على موعد ما يشي بنعومة أوقات تلك المرأة.

أما روح فما زالت واقفة عندها مثبتة القدمين بخيوط من حرير. وعيون قلبها تراها في كل مرة بشكل مختلف، وها هي مايا وكأنها مندهشة بتلك الوقفات المتكررة لروح أمامها وبخاصة في تلك الليالي الشتوية شديدة الصقيع وكأن مايا تلتفت إليها التفاتة حانية وتريد أن تحتضنها بهاتين الذراعين الممدودتين في انسيابية حرة طليقة. وكأن روح كم ودت أن تسألها إلام تلتفت!

ذات ليل. أمام تمثال مايا بلستيكيا مالك. يداعب شعر روح المسافر دوما عبر الزمن الفائت. يتحسسه في رقة، وينظر إلى عينيها. فيراهما وكأن قد حطت رحال دوأمات غامضة ذات أمواج عاتية عندهما، وسكنت بين الأحداق لتشدها لهاوية غيب لا يدريها! فيربت على كتفيها في حنان، ويأخذها بين ذراعيه الحانيتين. وكأنه يشدها من تلك الهاوية، ويقتلعها من ذاك الشرود التائه أمام تمثال البالرينا مايا بلستيسكيا.

أو وكأنه يخطفها بنعومة بالغة من بين هذين الذراعين الممددتين بطريقة ساحرة لمايا بليستكسيا. في هذه الليلة الشتوية من ليالي شتاء موسكو البارد. بعدما أصرت روح كعادتها أن تقف قليلا أمام التمثال أثناء عودتهما من المسرح. لمنزلهما مناديا إياها: روح.

تلتفت إليه روح هامسة: بحبك.

مالك. يلامس وجه روح، ويهمس حول عنقها الذي أسكنه بين يديه الحانتين: تصدقيني لو قلتلك أن لغة البشر، وكل كلمات الشعر عن الحب. ما تكفيك.

روح: أكيد مصدءاك.

مالك. يحتويها في حضن يعيدها عند حدود خريطة حب أيامهم. ثم يمسك بيديها، ويفتح باب السيارة لتدخل روح من هذا البرد القارس. ويقود السيارة. ليعودا لمنزلهم.

وها هي الأيام، والليالي تمر بهم عام بعد عام حنونة هادئة ما بين عملهم بالمسرح، ودراسته، وقضاء أوقات سعيدة ممتعة. في ذاك المنزل البسيط الذي اعتنيا بكل ركن فيه وأحبا أن تمتلأ حدوده بدفء مشاعرهم الجميلة حتى رزقا بابنتهم الوحيدة شادن في سبتمبر من العام 1986.

بعد مرور أكثر من ثلاثة أعوام... دقات هاتف منزل مالك...

روح: ألو.

فؤاد: ألو أنا فؤاد صديق مالك. من فضلك ممكن أكلمه.

روح: هو غير موجود. بعتذر لحضرتك.

ثم بدا يسترسل بالكلام، وكأنه يهذي: للأسف وصلت من القاهرة على أمل أني أقابل مالك أول ما وصل لمسرح البيلشوى لكن ما وجدته. وسألت عنه أعطوني رقم البيت.

روح؛ بكل أدب وهدوء تعتذر عن عدم وجود مالك للمرة الثانية، مودعة إياه، ومغلقة الهاتف.

فؤاد؛ وكأن الكرة الأرضية قد انتشلته من جحيم السنوات التي ارتضي فيها فراقها، والعودة مع فرقة بإليه دار الأوبرا المصرية للقاهرة لأنه. ما كان هناك سبيل غير ذلك. ليرتد على عتبات مالك وروح ككرة اللهب المشتعلة الآن. كي يطيح بهم في غل حرائقه. التي كانت رمادا خامدا منذ سنوات. كان يدور فيها في فلك أيامه. ما بين عمله وهواجسه، حتى اوصلته اوهامه إلى شخص مريض.

لكنه في هذه اللحظة بالذات لا يصدق نفسه، أنه يسمع صوتها. فبدا يترنح. ويتلعثم بالكلمات. وكأن ذاك المشهد الأخير الذي قذفته فيه روح بعيد عن أرضها، واستوطنت بالقلب مالك. بعد أن رفضت حبه يتكرر بعد ان أغلقت الهاتف. لتأخذه الذكريات، ويتذكر عذابات السنين التي عاش بها بعيدا عنها بعد ان تزوجت مالك.

كان يملأ ساعات أيامه. وثوانيها بالعمل كي ينساها. لكن كل هذا وأكثر كان بلا جدوى! حتى باتت ساعات أيامه، ودقات لياليها لم تعد تحتمل العيش معه. حتى واتته الفرصة، وقرر أن يعود إلى موسكو بعد ثلاثة أعوام من لقائه الأول ب روح. وكانت أسبابه الظاهرية أن عودته من أجل استكمال الدراسة الأكاديمية. لكن ما كان يخفيه عن الجميع. أنه انضم لهؤلاء الحاقدين بالعالم، والمتآمرين على إلا يحيا الناس جميعا بسلام، وليس روح ومالك فقط.

فانضم إلى تلك الحركات التي تدعى أنها إسلامية من وراء ظهر الجميع. وهذا كان هو السبب الرئيسي لنزوحه إلى موسكو بالاتفاق مع هذه الشبكة الدولية الراعي الرسمي للإرهاب بالعالم. وقد رآها فرصة ذهبية لاستقطاب مالك والانتقام منه بالتفرقة بينه وبين روح. إذ

كان الاتحاد السوفيتي ببداية التسعينيات هو اول ضحايا الجيل الرابع للحروب واعقبتها باقي دول المعسكر الشرقي. وكانت احداث تفتيت يوغسلافيا أسوء سيناريوهاتها، وسيناريوهات أيام مالك وروح.

***

(6)

ارسم أحلامك بألوان اليقين على دروب الملهمين، وان بدى الواقع سخيف. لا تبالى، فما يضيرك من أحد. لو أن أحلامك افترشت أمالك العريضة لتقترب، وغزلت بحنين الوصول. لكن حين تصل لا تغتر، وحافظ على إنسانيتك. فأي حالم هذا الذي يستطيع الحفاظ على حلمه، والارتقاء بذاته، والبعد بها عن أي جنوح؟

فؤاد. كان حلمه كبير. كحلم مالك تماما. فكلاهما كان حلمه الكبير والمشروع أن تدق أقدامهم على مسرح البوليشوى في العاصمة الروسية موسكو. وأن يعتلياه ليغردا، ويحلقا معا بروائع كلاسيكيات الأوركسترا العالمية. لريتشارد شتراوس. بيتهوفن. باخ. فيردي تشايكوفسكي. وغيرهم الكثيرين. وقد تحقق لهما ما أرادا بمنتصف الثمانينيات. ولم يكن أي منهما حينها مصدق ذاته.

فتجد فؤاد بالذات لم يكن يتخيل أن كل هذا الكمال موجود على الأرض، وما أن رآه حتى كفر به. ليعود ثانية بأوائل التسعينيات محمل بعقده وأحقاده ليخربه. مع مجموعته من أعداء الرقى والإنسانية. فما كاد أن يعود ويتقابل مع مالك من جديد. ليخط بيديه صفحات من الشرور على خريطة أيام صديقه، وأيام الإنسانية. بتلك الخطط

الشيطانية التي كان قد رسم لها، وبيت النية. وكان أول الخيط أن يوقع ب مالك وروح في شرك ضلاله.

بالفعل فقد حدد له مالك اللقاء، بعدما عاود الاتصال به بالمسرح. واتفقا على أن يلتقيا في تمام السابعة مساء، وقد حرص مالك أن يكون فؤاد جالس في أفضل مكان ممكن بالمسرح لمشاهدة أوبريت «إيفجين وأونجين» المأخوذ عن أوبرا من تأليف تشايكوفسكي.

الأوبريت كانت مدته ثلاث ساعات، ويتحدث عن الحب ومآسيه. من خلال قصة فتاة تحب شخص، يحب غيرها، وآخر متيم بحب فتاة تحب غيره. هذا الأوبريت بالذات كانت قصته تلمس شيء يقلق أمان قلب روح، كتلك الأشياء السابقة التي لم تكن تجد لها تفسير.

بالطبع كان أبداعهما، وانسجامهما الملائكي وهذه الحالة من الذوبان الكامل روحا وأداء الملفتة لأنظار الجمهور، والذي ذاب معهما هو الأخر. قد أشعل نيران الغيرة، والحقد أكثر وأكثر بقلب فؤاد. فهذا الفن الأوبرالي أو الأوبريت، الذي عاش فؤاد عمره متيم به ها هو وقد أنقلب عليه فجأة هو الآخر، بل وأراد له أن تحترق كل قلوب محبيه.

حتى هذه النماذج البشرية من حضور العرض المحبة للموسيقى الراقية، وهذه الأصوات الاستثنائية في القوة والنقاء والصفاء ممن هم من المفترض أنهم زملاء له، وعلى شاكلته الفنية، والذين يقومون بالغناء الأوبرالي بالعرض على خشبة المسرح الكبير حقد عليهم بقلبه، ولم يرحمهم بنظراته. كان المايسترو والعازفون لا يجلسون على خشبة المسرح، ولذلك لا يراهم الجمهور.

أما هو فكان يراهم بغل قلبه، هم يجلسون في مستوى منخفض تحت المسرح، حتى أن حرارة الحدث ودفئه. لم تجعله يشعر بهذا

الدفء الحاني ليسرى في أوصاله كباقي الجمهور. من حاملي بطاقات الإنسانية. فما كان يشعر به فؤاد هو تلك النيران الحارقة التي تلتهم الأخضر واليابس ينتهيا بالعرض على نجاح مبهر للجميع. ثم يتفرغا مالك وروح لاستقبال فؤاد على العشاء.

***

(7)

موسكو 1991...

بدت الأيام ثقيلة. متعبة، وكأن دقات عقارب أوقاتها صارت تتراقص على أشلاء خطوات روح، فبدت الحياة مكتوفة الخطى. وغدت روح سجينة لأفكاره الغريبة التي لم يقدر على استيعابها العقل حينها. فغادر الأمان قلبها في رحلة غياب. لم تكن تدري متى أقلعت. ومتى ستحين العودة!

أحد الأيام...

مالك. يعود في وقت متأخر جدا للمنزل، ويسير بهدوء وسط تلك العتمة التي كان قد فرضها بين جدران الروح. فهذه الليلة كما الليالي السابقة. اعتادت أن تطفئ أنوار حنينها بين جنبات البيت الهادئ بعدما ضن زائر الأشواق بالقدوم إليهم. منذ استقطابه فؤاد وأوقعه في شرك ضلالته مذهولة روح من هذا الخواء الذي صار رفيق بيتهم.

هذا البيت الذي كان بالأمس القريب ملاذهما، وحضنهما الأقرب، والوحيد الذي كانا يأنسان فيه بدفء مشاعرهما. فما الذي حدث، وجعل لياليهم الحالمة ترحل. بعدما كانت تسكن بودها هنا وهناك؟!

وما الذي أظلم تلك الأضـواء الحانية التي كانت تسكن هذه الجنبات؟! وما بال هذه الأباجورة السيئير. لما تبدو الآن كسيرة الخاطر، وهي مائلة على تلك القاعدة الرخامية من أظلم بصيص حنانها الخافت. واعتمها، فأفقدها الأمان؟!

وما لهذه الأريكة الأبيسون دافئة المشاعر. تتمرغ الآن في صقيع الليالي. أليست هذه هي الأريكة التي كانا يتدثران بدفء قلوبهما بها. منذ أن آتيا بها سويا من أحد المتاجر العريقة بأرقى أحياء موسكو. فما الذي حدث، وأطفأ وهج شوق الليالي؟!

وما لهذه الشرفة التي كانت تسبح بأحلامهم. حين كانت تخطفهم الأمنيات فينطلقا إليها. يطلان على أحلام الغد القادم إليهم بأمان. فيمرحان بالرقص معا على عزف الموسيقى الناعمة الأتية إليهم من نافورة المياه التي تتوسط حيهم. فتنثر رذاذ مياهها المعطرة بأريج حكايات عشقهما ليل. نهار. وترويه. فما الذي اعتراها الآن، وأخرس موسيقاها، وأعطش الحكايات؟!

يدخل مالك حجرة نومهما. فلا يرى سوى فراغ. حتى نافذته لم يعد يرى خلفها تلك النجوم التي كانت تزفهما بلآلئ من حرير، وتفرش ضوئها المطرز بألوان نجوم السماء. لينأما في حضن القمر على هذا السرير الذي تلحفت أيامه، ولياليه بأشواق قلوبهم. فمن أين أتى هذا الفتور وصار زائر سخيف يدب بالصقيع ليقلق الحضن الدافئ كل ليلة؟!

يحاول مالك أن يلقى بجسده المنهك من شدة البرد، والتعب، والتفكير بهذه الأمـور التي استقطابه إليها فـؤاد. وكذلك تلك الاجتماعات التي لا تنتهي مع هؤلاء السياسيين والنخبة. الملتفين

كالأفاعي دوما حوله، وحول البيلشوى. ليبثوا في كل ليلة سمومهم، ليتبعه شعور مرهق. يصاحب هذا الفتور الذي أختاره بنفسه. فجعل النوم يعانده، ويتركه مثلما تركته الروح، ليهرب منه ذاهبا إليها.

يطل عليها من مسافات قريبة. كان قد أبعدها الجفاء. حتى كادت عيون قلبه الشاردة تتلحف بروحها، وتركع تحت قدميها الممددة في دلال متدفق رغما عنها، وهي مستلقية على الشازلونج. فهذا هو اعتيادها حين تستلقي، وتلقى بالهموم. هي لا تراه الآن. هي ترى فقط ما تشاهد الآن على شاشة التلفزيون.

إنه أحد عروض الباليه التي تسافر بها. لتنتشلها من واقع سخيف كان قد فرض عليها. يتوقف أمام عينيها. فلا يجدها. فيعلم انها هناك. سافرت معه عند بحيرة البجعة. يحاول أن يلمح طيف تلك النجمات المتلألئة التي كانت قد هجرت النافذة، وهاجرت إليها. لتهيم على وجهها ومضات من ضياء.

يضغط برعشة يديه على زر الأباجورة المجاورة لها. فتضيء. لتقتله دموعها. ويترنح هو أمامها مذبوح بسكين العشق النافذ بالقلوب. لكنه يحاول أن يتماسك، فلا يستطيع. يتحسس بأنامله الحائرة دموعها الغالية على قلبه، وهي تتساقط دافئة في وداعة. تلامس وجهها. وسط هذا الصقيع الذي كان قد سكن يديه ليالي طويلة.

تفر الدموع من بين أنامله، وتتساقط منسابة في خشوع تارة بين يديه، وتارة أخرى تقف حائرة على وجنتيها رافضة حضن يديه لتأخذه عينيه صوب يديها المطبقة على أوراق حائرة. فيرى كلمات كادت ان تمضي تائهة الحروف. ولا تعرف أين المسير! لكنها ما تعجلت الرحيل قبل ان تستوقفه.

أما هو فلم يكن متحيرا كأوراقها. أنه يشم رائحتها عبر الحروف، ويلمح طيفها بين السطور. ويلوم نفسه. على انه لم يقرأ عينيها كل هذا الوقت الفائت. وقبل أن تطل عينيه على تلك السطور، وهي تقول: أيا أيها القريب. لما أراك بعدت كل تلك المسافات. تراك تعلم أنك قد بعدت ألاف. ألاف أميال حد الخيال وهجرت، وانت قيد قرب الخطوات دون سؤال؟! فلماذا لم يؤلمك مثلي البعاد؟! ولماذا لم يغريك عنى السؤال؟ تراك ظننت أني قد أهلكني البعاد. فبادرت أبحث عنك على الأوراق بسؤال كم ضج منك. وجواب يفر مني.

نعم؛ أنا مشتاق! لا؛ أنا لن يهلكني بعاد يتبعه سؤال جارح الجواب! فبعدك جرح لن تشفيه اعتذارات، ولن يطيبه تبريرات! إليك أيها القريب. البعيد كلمات ليس لها عنوان إن قرأتها ذات يوم. توقف. ربما يوجعك أنك صرت أمام محكمة القلب مدان.

***

(8)

ينهي قراءة تك الكلمات التي كانت تدونها بقلبها. لا بقلمها. تلك الكلمات التي سكنت مخذولة بين يديهم. واوجعتها الدموع. وقبل ان تحاول نظرة من عينيه كانت قد تأخرت المجيء. أن تعتذر لها عن هذا الحال الذي وصلا إليه.

يدق هاتف المنزل. يرفع مالك سماعة الهاتف. ثم يسكت للحظات. ليتكلم بصوت مهزوم.

ويقول: خلاص. خلاص. بكرة نتكلم.

ثم يغلق الهاتف. ويعود إليها أيضا مهزوم. مهزوم بتلك النظرة التي تأخرت المجيء حتى نظرة عينيه تفر الآن خجلي منه. لا تستطيع أن تلملمها بين أحضان قلبه ثانية.

يعترف لنفسه أنه لن يصل إليها ابدا. فما عادت أي كلمات مجدية. لأن تنقذ أي شيء مما كان بينهما. فباتا غارقين بلوعة أحرقت أشرعة الحنين التي كانت تقلهم. لينسحب من بين يديها في هدوء شديد. مطأطأ الرأس. مجروح الهوى. مسلوب الإرادة. بعد أن صار خذلانه، وهجره بلا أدنى ذنب جنت أقوى من مقاومته.

فقد فات الأوان بعد أن أخذوه منها، ومن نفسه، ومن كل أحلامه. يذهب مالك شارد. حزين إلى غرفة نومهما. لتظل روح ماكثة كما كانت. بل وربما أكثر حزن، وشرود منه. فهذه الليلة بالذات هي أسوء لياليهم. لذا فقد أخذتها ذكريات الليلة لأبعد ما كانت تأخذها كل الليالي السابقة.

ولما لا؟! فهذه الليلة هي أخر لياليهم بهذا البيت. بعد أن قرر مالك أن يهجرا موسكو، وينتقلا إلى أوكرانيا دون إبداء أسباب أقنعتها.

فكل ما ذكره لها أن الوضع في موسكو يزداد سوء، وأن الوضع في أوكرانيا سيكون أفضل، وهذا كان عكس الحقيقة. ولكنها لم يكن أمامها من سبيل سوى أن تصدقه.

ولكن. كيف لها أن تترك هذا البيت. الذي شهد كل ركن فيه على هذا الحب الكبير. والذي تحاكت فيه دقات قلوبهم بين جدرانه عن أغلى أمانيهم. فما لهذه الجدران تتباكى الآن عليهم، وعلى كل ما سمعته من تلك الأماني بعدما أشقاهم العذاب.

لم تصدق روح استسلامها ل مالك إلى هذا الحد. ورضوخها لتنفيذ كل أوامره. بداية من بعض التصرفات التي بدرت منه، والتي كانت على العكس من طبيعته وحقيقته التي تعلمها.

احتمال لأنها تعرفه جيدا. فلا تريد أن تتخلى عنه. أحيانا كان يستوقفها السؤال. عن هذا الذي حدث له، وآل به لهذا الحال. وقبل أن يجيبها عقلها الواعي. الهادئ. المتزن. كان قلبها يرفض أن يتوقف عند تلك التصرفات التي كانت تصدر منه. فتبررها انها دون أرادته. كي لا يضيع منها حب العمر.

رضخت لاستغلاله لحبها له. كما رضخ هو قبلا لاستغلال فؤاد. تعلم أنهما رضخا دون أرادة. لذا كان يبدو عليها أحيانا أعراض توتر شديد يجعلها تنزوي عن الجميع.

تتذكر كيف كان ينقلب عليها مالك، وعلى كل الأشياء المشتركة، والجميلة التي كانت تجمع بينهم خلال تلك السنوات الفائتة. وكيف بدء يحثها على ترك الباليه نهائيا، مقنع إياها أن هذا من شدة حرصه عليها، وعلى ابنتهم الوحيدة. وكيف تمادى في الضغط عليها بكل الطرق حتى مرضت لفترة كانت تقوم برعايتها والعناية بها، وبابنتها أمها. التي اقامت معهم من هذا الوقت. وكان لها وقفات كثيرة مع روح تنصحها بالبعد عنه، وتكملة مشوار حياتها بالباليه، حتى تقدر على تربية ابنتها، والا تترك مسرح البيلشوى.

محدثة إياها أن مالك ليس هو مراد العلايلي ابيها المصري. معترفة لها انها خدعت فيه بالبدايات، وظنته بنفس خلق، وعقلية زوجها. لكن مالك لم يكن مراد العلايلي.

وبعد أن تماثلت للشفاء. بدا يتشدد معها مرة اخرى. محدثا إياها عن مدى الحرمة التي بهذا الفن، وبكل الفنون. ثم بدء استقطابه لها، وضغطه على تلك المنطقة الشائكة التي يستغلها البعض. وأخذ يسرد لها بعض التساؤلات التي أوقعتها فريسة للحيرة.

فكان يسائلها مندهشا. كيف لها وهي إنسانة بكل هذا التدين أن تقبل بأن تستمر في رقص الباليه. وما أن سمعت منه أمها تلك اللهجة الغريبة. فاعترضت بهدوء على نبرته المتغيرة في بادئ الأمر. خاصة أنه كان يوما ما مثلها راقص بإليه، وأن هذا الفن الراقي هو سبب تعارفهما، وانه لم يكن يضيرهما أو يعيبهما في شيء.

وأخذت روح موقف امها. وأيدت وجهة نظرها. وما أن رأى تلك الردود. حتى راح يتودد لها تارة. محدثا إياها انه كان أكثر من يلمس حبهما سويا لهذا الفن. لكنه لم يكن يعلم انه فن محرم. فلما أذن ينقادوا هكذا.

إلى جانب عدم انغماسها كبقية زملائهم في حياة الفن، والفنانين. فهي ذات طبيعة خاصة. إذ كانت حياتها بالأصل هادئة. مقتصرة على حضن أمها. معلمة البيانو من بعد وفاة أبيها المصري، ومن ثم تواجدها معظم الوقت وسط اجواء الموسيقى أو بالتدريبات على مسرح البيلشوى.

لذا فهو يعذرها. وأن الوضع الجديد لا يتطلب سوى بعض الوقت للتأقلم ليس أكثر. وتارة أخرى يعنفها ويصرخ في وجهها. حتى جاءت وفاة أمها أثناء تلك الظروف، فصارت مكسورة كسر كبير لن يجدي فيه أي مقاومة. فاستسلمت تماما لكل أفكاره المغلوطة، ولم تعد تتناقش معه. فبدت روح في تلك الفترة غير روح التي كان زواجها من مالك وحبهما مثار حديث، وأعجاب الجميع. فقد ذبلت تماما وردة الروح.

***

(9)

أوكرانيا 1991...

وهكذا صار بهم الحال منذ أن أتى فؤاد ليخطف أيامهم على جناح حاد القسوة. شديد العبث بمقدراتهم للقضاء على الأخضر واليابس بالأرض وبالقلوب. بالإضافة إلى تشعب علاقات مالك بتلك النخبة التي ضمه إليها فؤاد والتي استغلت تعثر روسيا. وتحالفت مع فرق الشر التي حلت بالبلاد، وأرادات التمزيق، والتفتيت. فضرب الفساد كثيرا في بنية البلاد. وهكذا كانت كل مجريات الأحداث تعطى الفرصة ل فؤاد بأن يكون له الأثر الأكبر في مسح كل تدبر من عقل مالك والسيطرة عليه تماما.

فلم تصدق روح أن فؤاد أستطاع السيطرة على مالك بهذا الشكل، للتفرقة بينه، وبينها، وبين الباليه. وهما أكثر ما أحب بتلك الحياة من بعد حبه لوالديه. الذين كثيرا ما كان يتحاكى لها عنهم بكل الحب والمودة، وكيف أن أمه كانت تحب الشعر، وكيف كان أبيه الطبيب بارع في العزف على البيانو. وكيف أنه بعد كل هذا الحب لم يعد يتصل بهم على الأطلاق للسؤال عنهم.

وأنها هي التي تقوم بهذا الواجب الإنساني مطمئنة اياهم بانه بخير. وانه على سفر دائم. فكيف لفؤاد أن يخرجه من عباءة أمه وأبيه، وعباءة سنوات عمره هكذا، وأي قوة مؤثرة تلك التي استطاعت أن تجعله يغير جلده، ليقنعه أن هذا الفن كما جميع الفنون حرام، وأن مخالطة الفنانين ومعاشرتهم حرام. لذلك هجرهما كما هجرها.

بعد أن أقتنع بانه بذلك سيكون من أهل الجنة، وبالتالي من الواجب شرعا البعد عن كل هذا، والتقرب إلى الله. وبالأخير رأت روح أن الجميع

كان قد استغل تواجده حول مسرح البيلشوى بما فيهم مالك. إذ ان هذا المكان العريق لم يكن يوما مقتصر على اداء دوره الثقافي الفني الذي طالما عرفه عنه العالم كأحد أبرز مراكز صناعة فنون الأوبرا والباليه.

فمنذ أن عرف عن هذا المبنى أنه كان قد جرى به أيضا تنصيب قياصرة الامبراطورية الروسية، وكثيرا ما مر بنكبات أيضا. فقد دست مؤامرات تحالف قوى الشر ممن يطلقون على أنفسهم سياسيين بين جنباته.

أوكرانيا 1991...

لم تذق روح طعم الراحة منذ تلك الليلة التي تركت فيها بيتها بموسكو وهاجرت معه إلى أوكرانيا ليتركها حزينة، وطفلتها الصغيرة بالأيام.

ذات ليلة.

في هذا المنزل المتواضع بأوكرانيا ارتضت روح ان تعيش اسوأ أيامها، ولياليها. إذ عاشت بأقل القليل. وان بدت منها أي نظرة اعتراض يلومها مالك. على عدم تحملها ظروفه وظروف البلاد.

وان ضجت لعدم وجود اقل القليل من مستلزمات أساسية. كمتطلبات البيت من طعام وشراب وغير ذلك، وهفت بكلمة على سبيل الاعتراض يوبخها لأنها تبدو أمامه إنسانة أنانية استهلاكية ضعيفة أمام رغباتها.

ويحدثها في محاضرة طويلة عريضة عن ضرورة مجابهة النفس بالتقشف. حتى دخل عليها ذات ليلة. وهي تحضر العشاء المكون من العيش المبلل بالماء لابنتهم. فلا يوجد بالبيت كوب لبن للطفلة المسكينة، وهو ما تراه روح انه من ابسط احتياجات طفلتهم، والتي يقصر فيها مالك لا ظروف البلاد كما يدعى.

فقد ترك العمل الأكاديمي الذي بذل من أجله جهد كبير في الدراسة التي كان يستكملها بموسكو. والتي كانت أعانته عليها روح مالك. يقف أمامها بعد ان تغيرت ملامحه كثيرا عن قبل، وكأن قسوة ما تعلمه من فؤاد طبع على وجهه ملامح شديدة الغلظة والجبروت. فهذا ليس مالك الحنون الرقيق. الذي تعرفه.

تنظر إليه، وتتراجع للوراء بخطوات ما زالت رشيقة لكنها مرتعشة. خائفة من هذا الغريب. الذي دخل عليهم ليلا. يستوقفها محاولا أن يجذبها إليه. لكنها تخشاه أكثر، وترتعد يديها وهي تحمل طبق طعام ابنتها. ثم تدخل لحجرة طفلتها الصغيرة مسرعة. لتجدها تضور جوعا وتبكي. يجلس هو على كرسي ركيك الحال. بجوار المطبخ الفقير. وقد وضع يديه على وجهه. لا يدري ماذا هو فاعل بحاله!

***

(10)

القاهرة 2016...

تتعلق شادن بأحبال صمت كان قد آطال غيابه. وما عاد سوى بهمس. بح بوح حكاياته. فلم يعد لديها سوى مشاعر قلق صامت على أمها. ومشاعر حب جارف يسبح مسافرا عبر بحور شوق صار صامت الأحلام، وود ظل يستدعيه للحظات شهية المذاق.

فهذه الليلة دون سائر الليالي السابقة. تشعر شادن أنها ما زالت ذات الطفلة الواقفة منذ تلك السنوات البعيدة. عند ذات الشرفة تنتظر حبيب بعيد سيأتي.

تلك الشرفة التي كانت تلوح لها جدتها نيروز منها بالفرح. كلما كانت تجلس بها منتظرة مثلها الآن حبيب بعيد سيأتي. كهذا اليوم الذي انتظرتهم فيه، ولوحت لهم بالفرح حين عادوا من روسيا. أو كذاك الفرح الكثير الذي كانت تمطرها به، وهي تنتظرها لتلوح لها به من بعيد، وهي عائدة سعيدة في يد جدها الحنون.

تطل أسفل الشرفة تحمل معها. تلك المشاعر علها تلمح طيف الفرح الذي ظلت بانتظاره رغم أنه أطال البعاد. فما لمحت غير ذات الطفلة البريئة، فتمنت أن يكون قد أتى معها على عجلة الأيام.

وها هي الطفلة تتوقف الآن لتلتقط الأنفاس، تداعب ثوبها الوردي المسدل بحنين على قدميها. وكأنها هي التي كانت تداعب منذ لحظات أثواب التمني للحظة انطلاق. لتختطف من بينهم هذا الثوب الوردي لترتديه له. تدهشها الآن فرحة عينيها التي وقعت عليه، وهو يتوقف أمام ذات الشرفة. بعد أن نزل من سيارة ليموزين.

يحمل حقيبة سفره بيد، وباليد الأخرى يلوح لها بالفرح. أما عينيه فكما هي. ما زالت تختصها بتلك النظرة الدافئة. وذاك الحضن الفريد منذ تلك الليلة التي عزف فيها الموسيقار الكبير عمر خيرت على أوتار قلبيهما. ما زالت عينيه على عهدها. ما زالت كما وعدتها. فتلك العيون الصادقة حبا ما زالت لا تحمل بين أحداقها من نجمات السماء نجمة غيرها. وها هو قد أتى كما وعدها. أنه أمام عينيها الآن حقيقة لا خيال. أنه عاد.

عاد ليستدعي هدوئها الساكن في عينيها، وهو يناديه حنين. إنه باهي حبيبها العاشق. والذي أرغمه الفراق على أن يبقى كلاهما بعيدا عن الآخر.

تجري ملهوفة لتفتح له باب الشقة الذي أغلق كثيرا على أشواق إليه. ليلفها في حضن طويل. كم اشتاقت إليه أن يضمها بالدفء في

شتاء كانت لياليه طويلة. أو أن يمر على وجهها بأنفاسه الهادئة. فيهديها نسمات ليالي صيفية. لكن الأيام قست، وأطالت بعدها عنه.

باهي: وحشتيني. وحشتيني.

شادن تجيبه أحضانها، وقبلاتها الملهوفة للحنان ما يفوق لغة الكلمات.

يوم جديد.

تفيق روح على رائحة معطرة بالحنين. كانت قد آتت ليلة أمس، ومكثت على نافذة الروح. لتداعب الصباح بأشواق تفوح همس بين جنبات هذا البيت. بل وأخبرتها أن هنا حبيب قد عاد. فترتسم على وجهها ابتسامة اطمئنان.

تدخل عليها شادن مبتسمة. فتلمح روح على وجهها فرحة كم غابت كثيرا ضحكة لياليها. وكأن خريطة الأيام قد هدأت ركابها، ونامت أسفارها الكثيرة في حضن عيون ابنتها بعد عناء الرحيل الطويل.

تنظر شادن إلى وجه أمها الهادئ. سعيدة بنظرة عيونها المطمئنة إليها. فتدللها كما عودتها، وكأنها طفلتها الصغيرة التي طال انتظارها بشوق. وتقول: صباحك جميل روح.

تبتسم روح في هدوء. وكأن روحيهما كانتا قد تبادلا بالأمس كل الحكايات... تقبلها شادن قبلة صباح مختلف المذاق، ثم تفرد لها طاولة فطورها المكون من العسل الأبيض، ومربة اللارنج التي ما أحبت روح غيرها، وكوب صغير من الماء بالنعناع.

تضع لها الطعام في فمها، على الرغم من قدرة روح على تناول طعامها بنفسها. ثم تخبرها بهمس. أن باهي قد عاد. فتبتسم روح.

لتخبرها نظرة عينيها المطمئنة عليها أنها تعلم. فتتأكد شادن أن ذاكرة قلب أمها كانت وما زالت قيد البقاء. وأنها دائما على موعد بالعودة معه كلما أتى منذ ما حدث. باهي. أتى. لتتنفس صباحات الأيام بوشوشات ورود العمر. ودندنات مواسم العصافير.

أتى. يطيب خاطر أوقات جنبات البيت الهادئ. بنغمات حنان. تلهو بحنين لتراقص التابلوهات المائلة بدلال على جدران الزمن. وهفهفات حانية تداعب ستائر نائمة في حضن الشوق. فتفتح نوافذ أيام عمر كان قد أغلقها البعاد على قلوب من حرير أتى. لتلامس قدماه عتبات كم ترامت بشجن في ليالي حزينة لذكريات.

أتى. بصباحات تحيي الجمود. وتلقى برتابة الوحدة بعيد. بعيد. أتى. ليؤنس الحياة. فكل ما حولهم الآن في حضرة البهجة يحاكى الزمن أنه لم تغب عنهم أبدا الروح. وأن ما يحدث الآن في هذا البيت. هو مجرد بعث جديد لنبض الأيام والليالي. أتى ليعود بشوق لأول لقاء.

دار الأوبرا المصرية... سبتمبر 2009...

قبل أن تسدل ليلة خريفية ستائرها بهدوء. تأتيه نسمات ربيعية تلفح معه وجه القمر، وتؤنس النجوم. ليبتسم له وجه المساء الحالم بشتاء دافئ سيأتي. وسكون ما. سوف يسكن راحة لياليه. لترتب خريطة الأقدار لقائهما. أثناء حضورهما إحدى حفلات الموسيقار عمر خيرت بدار الأوبرا المصرية.

لم يكن يعلم أن القدر سيختصها هي من بين الحسان كي تجلس بالمقعد الملاصق. أخذته عينيها الحالمتين. لعالمها الخاص. فسافر مع شعرها المتموج بالأحلام الملونة عبر الزمن طالبا حق اللجوء إليها.

وفي لحظات صارا عاشقان. لا يبغيان فراق. ليظلا فيما بعد مدينين بالفضل لتلك الليلة. ولهذه الموسيقى الحالمة، ولهذا الموسيقار الكبير. فراح يبنى معها أحلام كبيرة. صارت فيما بعد أيامهم التي يعيشوا تفاصيلها الآن. باهي. مهندس بترول يعمل في إحدى شركات البترول العملاقة. متنقل بين دول الخليج، وأحيانا ما يتنقل بين بعض الدول الأجنبية.

لم تكن روح قد أصابها في تلك الأيام مرض الزهايمر. تعرفت عليه، وسعدت به. كانت تعيش معهم، ومع تفاصيل قصة الحب التي جمعتهم أسعد أيام حياتها. مستشعرة أنها بتلك الخطوة ستتم رسالتها مع ابنتها على خير. ليكتمل عندها هذا الإحساس الناقص، والمكتمل بالسعادة. خاصة بعد أن تخرجت شادن من الجامعة الأمريكية قسم أعلام، وعملت مراسلا صحفيا لأكثر من جريدة، وقناة تلفزيونية.

أثناء تلك الأيام خطوا بالفعل سويا خطوات تنفيذ تفاصيل الزواج، وإعداد الحجرة الخاصة بهم في البيت لاستقبالهم. بعد أن وافق باهي على أن يعيش معهم بهذا المنزل الدافئ. لافتقاده هذا الدفء الحنون. الذي كان يستشعره مع جدته منذ أن تولت رعايته وهو في عمر صغير جدا بعدما أخذت الغربة منه والديه الطبيبين الذين تركوه في رعاية الجدة، متفرغين تماما للعمل بإحدى دول الخليج. مكتفين بالاتصالات العادية، والإجازات السنوية. مطمئنين أنهم خططوا لابنهم خريطة أيامه. متغافلين أنهم كانوا قد ختموا على سطور أيامه بختم غميق كان يجافي أعز اللحظات وأغلى الأوقات. حتى كادت تمحى، ولا ترى حتى بعين الذكرى. تسير به الحياة بعد أن أفتقد جدته. معتمد على ذاته حتى التخرج من الجامعة.

بعد مرور كل تلك السنوات يدهشاه والديه. بقرارهم المفاجئ باستكمال حياتهما خارج مصر، والهجرة لأمريكا. طالبين منه أن يرافقهم ليؤنس شيخوخة لياليهم. لكنه يرفض تماما أن يتبعهم. موضح لهم أنه من الأفضل أن يعيشوا جميعا بالقاهرة. لأنه مهما أخذته أوقات السنة خارج مصر للقيام بعمله. لا يستطيع أن يعيش ببلد سواها. فهو العائد دائما إلى حضن الوطن كل أربعة أشهر على الأكثر.

رفضوا رفضا ليس له أي مبرر من وجهة نظره. متحججين بقلق يسيطر عليهم بالبقاء. خاصة. بعد ما حدث بسوريا. ومن قبله العراق، وما يتراءى لتونس في الأفق، وهواجس شتى مما سيحدث بالمنطقة العربية ان عاجلا أم أجلا. لتبقى من بعد ذلك الحياة بينهم متصلة بوسائل الاتصالات المتعددة. كما كانت قبلا للحفاظ على صلة الرحم.

لكنها ظلت حياة بلا دفء يسكن الروح. وكأنه صار ابن من أبناء هذا الزمن الذي قطع حبله السري من رحم الأيام قبل ان تخرج أنفاسه للحياة. لذا قرر البقاء مع روح لأنه ما رأى دفء أنفاس جدته، وحنان حضن عينيها إلا في دفء حضن عينيها. س كذلك كان أحساس روح به. فحملته بقلبها. وأغمضت عليه رموش عينيها.

***

(11)

كانت أسعد أيام حياة روح تلك التي عاشتها مع شادن وباهي. لإدخال بعض التعديلات البسيطة. واللمسات الحديثة من دهانات للحوائط وما إلى ذلك على البيت. حتى تمت كل تلك الأمور بالتشاور بينهم. ليمتلئ البيت من جديد بأنفاس حنونة. بعد أن فرغ طويلا ممن أحبهم. ارتأت

روح بعد المشورة معهم. أن تكون غرفتهم هي تلك الغرفة الكبيرة، والتي كانت بالماضي قد خصصتها والدة مالك غرفة معيشة.

وها هي روح بعد ان فرغوا سويا من إعداد غرفة العروسين. يداعبها الأمل أن تمتلئ رئة المنزل ثانية بالحياة مع شادن وزوجها، وأحفاد المستقبل الذين كم اشتاقتهم وتمنتهم. وهكذا ظل الوضع هادئ وسعيد من حولهم وبخاصة بعد أن آتوا والدي باهي قبل الزفاف بأسبوع ليشاركوا وحيدهم فرحته، لتستقبلهم روح، وشادن بسعادة غامرة. وهكذا اكتملت فرحة باهي، وسعد الجميع بالعروسين. ليلة زفاف شادن كانت ليلة من أجمل ليالي عمر روح فبدت سعيدة جدا. بابنتها الجميلة وعريسها.

لكن شيئا ما كان يأخذها لبعيد فبدت شاردة احيانا. ثم أتضحت معالم هذا الشرود بعد أن تركتها شادن لتسافر مع عريسها لقضاء أسبوعين من شهر العسل بشرم الشيخ. فهذه هي المرة الأولى التي تفارق روح ابنتها الوحيدة. لكنها كانت أمامها تقاوم. وتقاوم.

أيام شهر العسل للعروسين، فرغت الأيام تماما حول روح. حتى جارتهم الحبيبة كانت هي الأخرى قد سافرت إلى كندا. كانت فيروز الجارة العزيزة بالشقة المقابلة لشقتهم. فظلت هي العشرة الطيبة، والصحبة الحلوة مع زوجها طبيب الأطفال الذي توفي في مقتبل شبابه بعد عودة روح ومالك بعام.

وكان قد ترك لها طفلتين أكملت هي تربيتهم حتى كبروا، وتزوجوا. هاجرت إحداهم وتعمل مدرسة لغات مع زوجها المهندس إلى كندا، والأخرى طبيبة وتعمل مع زوجها الطبيب بالكويت.

كانت فيروز وبناتها تخفف كثيرا. كثيرا عن روح وشادن سواء بعد وفاة مالك حين توفوا الجد والجدة بعد ابنهم في عامين متتاليين. فلم تشعر روح بغربة في ظل وجود فيروز وابنتيها إذ كانوا كالبلسم الشافي في كل تلك الفترات الصعبة، أما بعد سفر فيروز ومن بعدها سافرت شادن مع زوجها لقضاء أيام شهر العسل. صارت روح كالتائهة. ولا تملك سوى العيش بين جدران الذكريات.

تسمع دقات هاتفها المحمول. فتجرى عليه ملهوفة.

روح: ألو.

شادن: وحشتيني جدا يا مامي.

روح: وانت أكتر يا حبيبتي.

شادن: انا سعيدة جدا، وكان نفسي تكوني معايا.

روح: أنا معاك على طول. حبيبتي استمتعي بوقتك. وسلمي على باهي.

شادن: باهي عايز يسلم عليك بنفسه.

باهي: وحشانا جدا جدا يا طنط.

روح: أهلا يا حبيبي. وأنتم أكتر حقيقي ربنا يسعدكم.

تخطف شادن من باهي الموبايل، وترسل إلى امها سيل جارف من القبلات يضحك باهي ويتركهم يكملون حديثهم الدافئ.

ليمضي هو ويحضر لشادن عصير المانجو الذي تحبه. تغلق روح الهاتف الجوال ثم تجوب بالشقة مع موسيقاها الحالمة للموسيقار فيردي فتراها كانت منذ أن آتت إلى هنا، وهي تختطف الأمنيات، وتطوف بها على شراع الحنين الذي ظل يسافر إليه. على الرغم من كونه كان قابع على سريره في هذه الغرفة منذ السنوات القريبة.

فقد فارق مالك منذ عشرة أعوام، وما ملت روحها يوم من أن تزوره ما بين الحين، والحين. حتى وهو يعيش بينهم بالبيت لا يدري شيئا عنها أو عن ابنته، ووالديه، وحتى عن نفسه سوى لحظات على مر السنوات. منذ أن عادا سويا من روسيا.

وها هي الآن تجلس على حافة سريره. هذا السرير الذي كان لا يطول غيابه عنه منذ أن عاد إلا إذا كانت هناك ضرورة قصوى لذلك. كتلك الحالة التي كانت تستدعى أن يحمله والده للمستشفى. ولكم طال بعاده عن سريره، وعنها في تلك الأحيان.

كما طال قبلا بجبال الشيشان حين تركها وحيدة وابنتهم بأوكرانيا، وانتظارها له في كل الأحيان أن يعود. لكنه للأسف لم يكن أبدا يعود منذ أن قرر الغياب. فراحت تتعايش هي مع الأيام على أمل اللقاء. حتى وان طال غيابه العمر كله.

تنظر روح إلى غرفة مالك فتجدها كما هي. لكنها الآن من دونه بالفعل.

الغرفة كما تركتها هي وأبويه على حالها منذ أن غادر هذه الحياة. لتبقى هي على العهد معه، ومع أبويه. الذين أصروا أن تبقى حجرته أمام أعينهم جميعا كما هي. بنفس أسرتها الخشبية البيضاء. ودولابها الخشبي الأبيض. فبالغرفة كان يوجد سرير واحد بنفس لون الستائر، والجدران البيضاء. ثم أضاف له الأب الطبيب سرير آخر. بنفس الطراز واللون. حين عاد إليه ابنه مريض بالاكتئاب النفسي. ليكون لجواره معظم الوقت.

تغادر روح حافة السرير. لتقف على قدميها. وكأنها وقفت لتوقف سباق الزمن. حين نظرت أسفل قدميها لتطل بعينيها على سجادة مالك المرسوم عليها سيارات السباق مختلفة الموديلات، والملونة بألوان

سيارات السباق التي كان يعشقها مالك منذ أن كان طفل صغير. فأهدته والدته تلك السجادة بغرفته. ثم تطوف بعينيها فتراه وهي تطل على تمثال لطفل يلعب الباليه ظل موضوع على مكتبه إلى جانب أورج صغير.

تتذكر أن هذا التمثال كان أهداه إياه والده في عيد ميلاده الخامس كما ذكر لها الوالد بنفسه ذلك. ثم تكمل الطواف بعينيها. المسافرتين دوما إليه. لتطل على ذكريات أخرى ما أحلاها. وكأنها كلها كانت وما زالت تتحدث عنه. وعن كل فترة من فترات حياته المختلفة قبل أن يلتقيا سويا. تتذكر والدته التي كانت تراه بعين الحبيبة الأولى. فتحدثها كثيرا عن أول لقاء بينهما. وعن أول قبلة لعينيه. وعن أول لمسة لوجهه الرقيق. وعن أول ملعقة طعام أطعمته إياها بعد أن فارق صدرها الحنون.

أما والده فكان يحادثها كثيرا عن هواياته المتعددة. للسباحة، وكرة القدم، وسباق السيارات، وفن الباليه الذي كان أخر حواديته. تجوب روح بعينيها بين هداياه المعلقة بأمان على الجدران أو الموضوعة بحنان هنا. وهناك، وتتذكر كلمات أمه. وكيف أنها وأبوه كثيرا ما أهدوه كل تلك الذكريات الحلوة على مراحل عمره المختلفة. ليعود إليهم بالحنين مع تلك الذكريات حين يكبر، ويستمتع معهم بكل تفاصيل اللحظات حين يقفوا سويا عند عتبة كل ذكرى. لكنه ما عاد.

أما روح فقد أبقت من بعدهم على ذكريات ذلك العهد الذي كان بين ثلاثتهم. وهكذا صارت تلك الغرفة بمثابة المزار الذي كان، وما زال يخفف عنها من ألام حدة الفراق.

تخرج روح من غرفة مالك لتذهب إلى المطبخ. تعد لنفسها القهوة. وعلى نار هادئة تقف أمام قهوتها. كما علمتها حماتها نيروز التي كانت تستمتع بشرب القهوة معها.

تنتهي منه. لتخرج إلى غرفة الليفنج روم التي كانت غيرت لون جدرانها، وستائرها من اللون البيج إلى اللون الأبيض أيام كانوا يقوموا ببعض التعديلات الطفيفة على الشقة استعدادا لاستقبال العروسين.

ثم تستلقي روح على ذات الفوتيه الذي سيظل دوما به مطرح لا يفارق القلب. لأنه مكان أم مالك المفضل حين كانت تجلس عليه، وهما يتناولان معا قهوتهم الصباحية التي كانت تعدها بنفسها لهما.

وقبل أن تنهي روح شرب قهوتها. وتضع الفنجان على الطاولة النحاسية الصغيرة التي ما زالت تجاور الفوتيه، وما فارقته يوما. تأخذها ثانية الذكريات فتجدها تنظر إلى قاع الفنجان، وما تبقى على جدرانه من حكايات كانت والا زالت تنقشها الأيام. كما كانتا تفعلا بالماضي هي وحماتها.

وكأنهما كانتا تريا ظلال أحلام ظلت تراود العمر. فتروح، وتجيئ من خلال ذاك النقش الباقي من ارتشافهم للقهوة بقاع الفنجان الأبيض. فلربما كانتا تأملا أن تريا أي ملامح قد تبشرهم بقدوم الهني من الأحلام.

صوت شادن القادم إليها يخرجها من عبق رائحة الذكريات. تهرع إلى باب الشقة، وقبل أن تهم بفتح الباب. تكتشف أن موعد عودة شادن، وباهي غدا، وأن هذ الصوت الذي سمعته ما هو إلا صدى نداءات الحنين التي كثيرا ما تسمعها.

يناير 2010...

كان هذا هو موعد عودة العروسين من شرم الشيخ بعد انقضاء أيام العسل. لتقف في ذات الشرفة. قبل موعد وصولهم بنصف ساعة تنتظرهم بلهفة. كي تلوح معهم بالفرح. حين يقبلون أمام عينيها أسفل

الشرفة. قبل أقبال هذا المساء الذي ما أدركت روح أن أ دبار ليله سيحمل أسوأ سيناريوهات الأيام والليالي القادمة.

فأي أشياء سخيفة تلك التي قد أتى يحملها معه هذا المساء، وجعل تلويح الفرح بيديهم يبدو هكذا كسير اللهفة. فأومأت شادن برأسها إيماءة سلام بدى لروح أنه سلام فاتر لا يليق بشوق اللحظة حتى لو صحبته تلك الابتسامة الخافتة.

أما باهي فلم يكن ضحوك الطلة كسابق عهده. ارتبكت روح وهي تجرى ملهوفة لتفتح لهم الباب. وجميع وساوس الشيطان كانت تقرع على باب قلبها حتى كادت تكسره بأن مكروه قد أصابهم. إذ لم تكن روح تتابع ما يحدث على الساحة من مجريات الأمور السياسية، والاجتماعية بالمجتمع في الفترة الأخيرة. تحتضن شادن أمها بالدموع. أما باهي فقبل رأسها، وكتفيها، وجرى يفتح التلفزيون.

هرولت شادن من ورائه. لتجري خلفهم روح متسائلة: في إيه يا حبايبي؟! – ينطقون في نفس واحد. – يا رب خير. روح. ودون أن تعلم أي شيء. تردد في أمنيات سلام. يا رب. يا رب. تمضي الثلاثة أيام الأولى وروح تختطف منهم شيء. فشيء. وكأنها مصر التي تختطف الآن، وما كفى الجميع أنها اختطفت من قبل بسنوات، وسنوات.

لتلمح شادن طيف تيه يزور أيام امها المقبلة لكنها لا تحاول أن تقلقها على نفسها. كل ما حاولت أن تفعله. هو أن تشغلها بإعداد بعض الأطعمة، والمشروبات الخفيفة مثل جميع أهل الحي للشباب الساهر تحت الشرفات لحمايتهم.

***

(12)

بعد مرور أسبوعين...

أثناء حوار بدا ساخن الأحداث بين شادن، وباهي. عما آل إليه الحال في مصر. بدت روح تنتبه إلى حد ما لما يحدث بينهم. فبادرت بالقول: أيه يا حبايبي. الحال طول. وشكله موش ها يعدي على خير. أنا متوغوشة جدا على البلد.

يقف باهي أمام كلمات روح شديدة الحميمية المصرية، وخاصة كلمة متوغوشة لينتفض من مكانه. وموجه كلماته لشادن قائلا: هي دي مصر المخطوفة من زمان. مصر يا شادن. مصر حبيبة روح.

ونبض الروح تبكي روح من شدة تأثرها بكلمات باهي وشدة قلقها على حضن أمانها مصر. تشدها كلماته لأجمل أيام عاشتها مع والدها الضابط البحري، وهي طفلة صغيرة تتهجأ الحروف، وكيف كان حريص على أن يعلمها اللغة العربية، ويحفظها القرآن الكريم.

لكن رحيله باكرا. جعلها لا تتقن اللغة، واللهجة المصرية كما كان يحب. وكأنها كانت على موعد مع القدر. عندما أهداها لقاء أخر مع اللغة العربية، والمصرية التي أحبتها عندما كان يحادثها والدها بها. حين تزوجت مالك. ثم لقاء أخر مع عودتها للعيش بالقاهرة وسط والديه، والتعايش مع جارتهم فيروز وأهل الحي كل هذا جعلها تمتص حلاوة رحيق لغتهم. لتصير منهم. وهكذا هي مصر دائما.

فبراير. 2010... مصر الجديدة...

يأخذهم باهي بالسيارة حيث مكان المطعم الذي سيتناولون فيه غذائهم بمصر الجديدة. لم يشعروا كم مر من الوقت على صمتهم المصدوم، وهم ينظرون من خلف زجاج السيارة عما آل إليه الحال.

لم تكن روح مصدقة ما تقع عليه عينيها بالطريق. تتساءل في صمت ما الذي حدث، وأتى بكل تلك المصائب هنا لتطال من القاهرة الجميلة. كذلك كانت شادن صامتة وهي ترى كل شيء على حقيقته الآن. بعد أن ظلت بالمنزل طوال الفترة السابقة منذ يوم 25 يناير ما غادرت البيت، ورفضت أن تنزل للعمل، أو للميدان. حتى النزول مع باهي رفضته كي تبقى لجوار أمها.

بعد تعرضها لأول هزة اضطراب نفسي واضحة المعالم منذ اللحظات الأولى لما حدث، وقبل أن تهب عليها عاصفة المرض. وقتها أختلف الجميع في توصيف تلك الأيدي التي عبثت بكل هذا. إلا روح.

إذ كانت تعرفهم وتحفظهم عن ظهر قلب. منذ السنوات البعيدة التي عايشت فيها لمعظم أحداث هذا العبث هناك. وتعرف من خلال قراءتها المتعددة أنهم أولئك الذين يظلون طوال الوقت مختبئين خلف عباءة الثوار. كما تعلم تماما أنها أول من اكتوت بنيرانهم.

ففي بداية التسعينيات. فرضت الكيانات الرأسمالية الكبيرة بالعالم. قوتها وسيطرتها لتفتيت الدول القومية على أسس طائفية ضيقة تحت شعار العولمة. إذ أنهم اعتبروا قومية هذه الدول عائق أمامهم وأمام السوق العالمية التي يهيمنون عليها.

لذلك سعوا إلى تكسيرها وتفتيتها. لأنه سيكون من الأسهل عليهم دمج تلك الكيانات الطائفية الضعيفة في السوق العالمية الشرسة التابعة لهم تحت شعار العولمة من دمج تكتلات كيانات ذات قومية كبيرة.

لذلك كان لهم الدور الأساسي في تفتيت الاتحاد السوفييتي وغيره من دول أوروبا الشرقية. وسعوا إلى تفكيك العراق والسودان، واليمن،

وسوريا، والجزائر فلا غرابة إذن مما قرأته قبلا عن تفكيك مصر. وما يحدث الآن بها.

ما دامت لهم أذرع، وأيدي في كل مكان بالعالم أنهم للأسف سرطان العالم الذي ينتشر ويتوغل بلا رحمة. لكنها مهما كانت تقرأ لم تكن تتوقع، ولم يكن يخطر لها ببال أنهم سيأتون خلفها هنا. هكذا رأت روح فظلت طوال الطريق صامتة. وكأنها تخشى الحديث عن أي شيء. وكأن أحدهم سيسمع صوتها، ويأتيها ليختطفها من وسط هذين الحضنين الدافئين. واللذين ما عادت تملك سواهما. فظلت ترتجف في صمت.

أما الحديث الذي كان بين باهي وشادن بالسيارة فكأنهم تعمدوا أن يكون مختلف كي يخرج روح من تلك الحالة الحزينة التي آلت إليها. فهم يدركون معاناتها السابقة، ويشعرون بها جدا، ويقدرون مخاوفها. وكذلك بعد أن أشبعتهم الأحداث الماضية بالشوارع، وأمام شاشات التلفزيون. والسوشيال ميديا. كل هذا الكم من الأسف، والأسى على هذا العنف الذي تخلل تلك الأحداث المخيفة، والتي ما زالت قائمة حتى تلك اللحظات. ولا يعلم مداها. أو إلى أين المسير؟! أو حتى متى ستتوقف؟! سوى الله.

يطوف بهم التأرجح ما بين الأمل، واليأس كغالبية الناس على الرغم من أن ما بالقلوب يغلب عليه طابع القلق المرتقب والانكسار. يتناولون طعامهم دون شهية لأي مذاق. حتى الكلام كان عديم الطعم فآثروا السكوت. ولكن باهي كان لا بد من أن يكسر لهم هذا الحاجز النفسي الذي شرخ قلوب الكثيرين. حتى يحاولوا أن يعتادوا الأيام.

يعودون دون هذه المتعة التي كانوا معتادين عليها. منذ أن كانت تجمعهم الأماكن الكثيرة على أي مأدبة سعادة من قبل، ليعودوا للمنزل

بنفس حالة الانكسار التي غلبت عليهم رغما عنهم. ومهما حاول باهي أن يطمئنهم قبل أن يتركهم، ويسافر لعمله. الذي كان قد غاب عنه شهر كامل فوق أجازته التي كان قد حصل عليها قبل الزواج. ولكن ما باليد حيلة فهو ما كان يستطيع أن يفارقهم أثناء ذروة الأحداث.

***

(13)

مساء بالمنزل.

ثلاثتهم بالليفنج روم لمشاهدة التلفزيون. ينظر باهي لوجوههم المهمومة بالأوضاع المختلفة وبفراقه أيضا. ويقول: بفكر بكرة بإذن الله. نخرج بالليل. أيه رأيكم؟ بإذن الله كل الأمور ها تبقى تمام.

تضحك شادن. وتبتسم روح في هدوء، وتوافق. ثم تدخل لتنام.

صباح يوم جديد...

شادن بحجرة نومها ترتب ملابس باهي بحقيبة سفره. بعد ان خرج من المنزل باكر لترتيب بعض الأمور الخاصة بعمله والذي سيوافق الغد. ثم تترك ما في يديها، وتذهب لتطمئن على روح. فتجدها تقف شاحبة بالمطبخ تحاول إلا تستسلم لهواجسها، وتعد لهما كوبين من النيس كافيه.

شادن تحتضنها ثم تقبل عينيها قائلة: صباح الخير.

روح: تحتضنها في دفء شجي يغنيهم عن الكلمات.

شادن: النيس كافيه في ميعاده تمام. إيه رأيك نشربه عندي، وانا بحضر شنطة باهي.

روح: مفيش مانع.

ثم يكملان حديثهما أثناء سيرهما بالشقة.

شادن: باهي نزل مكتب الشركة في المهندسين. يأخذ بعض أوراق خاصة بالشغل لفرع الشركة بعمان.

روح: كويس ان الشركة فاتحة في الظروف دي. عموما في كل خطوة سلامة بإذن الله.

وما أن وصلوا إلى الغرفة. حتى بدت روح صامتة. تائهة. أمام هواجسها، وأمام حقيبة السفر. وكأنها سافرت قبله. وغابت عن الزمان، والمكان. وعادت بخوف هواجسها إلى هناك.

شادن. غير قادرة على استيعاب حالة التيه التي تنتاب أمها، والتي تراها عليها الآن وهي تنظر لحقيبة السفر. فترجع الأمر للظروف التي تمر بالجميع والتي تداخلت مع توقيت سفر باهي. الذي كانت أمها تعلم به قبل أن تتم موافقتها على زواجهم، وفي محاولة من شادن للخروج بأمها من حالة الاختطاف التي تبدو عليها. ترى أيضا ذات النظرة التي لمحتها في عيونها في ليلة زفافها. وما فارقتها حتى عودتهم من شرم الشيخ، ومرورهم جميعا بتوابع ما حدث حتى هذه اللحظة. وتقول. مامي. حضرتك سمعاني.

روح تنتبه بسرعة لابنتها وتقول. طبعا حبيبتي سمعاك.

شادن: أدعى ل باهي ربنا يسلمه من كل شر.

روح: بدعيله وبدعيلك يا حبيبتي.

شادن: يا حبيبتي يا مامي. أنا عارفة إنك بتحبي باهي زيي تمام.

روح: أنا اعتبرت باهي ابني من أول لحظة شفته فيها.

شادن. تحتضن أمها. فتقبلها روح. ثم تتلقى شادن مكالمة على الموبايل من باهي. فتعود روح إلى تلك اللحظة التي دق فيها هاتف منزلهم. بأوكرانيا. حين أتصل فؤاد بمالك. ليرد على الهاتف بعصبية كانت اعتادت عليها روح بأيامهم الأخيرة. ويقول: حالا يا فؤاد. في خلال ساعة هاكون جاهز وبانتظارك.

فؤاد. ويكاد صوته الجهوري أن يخترق أذن روح كطلقات الرصاص.

ويقول: ساعة كتير يا مالك. اخلص.

مالك. بحضر الشنطة: يا فؤاد. أنا موش فاهم كان ها يجرى إيه في الدنيا لو خبرونا قبلها بيوم أو يومين. أكيد كان ها يكون الوضع أفضل.

فؤاد: أوامر يا سيدي.

مالك: أووووف. أوامر. وزفت خلاص. خلاص.

فؤاد: ايه يا مالك انت مضايق والا أيه روء. روء وأهدى عشان مشوارنا طويل.

مالك: مفهوم. مفهوم.

ثم يغلق الهاتف دون أن ينظر إلى روح كي لا تقرأ وجهه. فيضعف. ويتراجع. أما هي فقد فارقت مالك رغما عنها. لكنها حاولت أن تتماسك أمامه، وتظهر عكس حقيقة مشاعرها. لتصله رسالتها أنها أيضا تركته.

كما قرر بناء على تعليماتهم قبلا أن يأتي بهما لتلك المنطقة المشتعلة ثم يتركها، وطفلتهما وحدهما ب أوكرانيا، ويغادر أيضا بناء على

التعليمات. بعد أن أجبرها أيضا فيما قبل على مغادرة بيتها الأول، والذي ما تخيلت يوما أنها ستبعد عنه، وهو مسرح البيلشوي. ثم حرمانها من بيتهم الدافئ، والذي ما كانت تتخيل أيضا، وهما يرتبان كل ركن فيه بكل هذا الحب أنهما سيتخليان عنه يوما ما، ويهجرونه بهذه القسوة. بل ويقطعون بقسوة أيضا أي علاقة لهم بموسكو التي أحبوها وأحبتهم.

تكره روح هؤلاء، وهذه النخب السياسية التي أغرقته كغيره من صفوة الشباب. دون أن يدركوا وقتها أبعاد الموقف بانصهارهم الكامل مع تلك الحركات الشيوعية، وحركات تدعى التحرر الوطني في هذا البحر المتلاطم من التناقضات، والثغرات الداخلية التي جرجروا إليها البلاد فتفكك الاتحاد السوفييتي.

***

(14)

تنتهي شادن من المكالمة التليفونية مع باهي، وتطل بعينيها الحنونة على أمها. وهي ما زالت جالسة. على فوتيه يجاور نافذة غرفتها المطلة على النيل. لكنها ما أدركت أن النيل حملها بين حقائب أسفاره منذ لحظات، وعبر بها مع جريانه الذي لا يهدأ حتى وصلا إلى هناك. تهمس إليها شادن بالنداء. فلا ترد روح النداء. أنها بعدت. بعيد. بعيد. ولم يدور بخيال ابنتها أبدا أنها وصلت عند تفاصيل الذكريات القاسية، ولن تسمع ندائها مهما بلغ قربهم.

حدود الشيشان... 1995...

يتضح له الموقف من بعد أسبوع من السفر بالقرب من الحدود الشيشانية. ويتدارك مالك بعد فوات الأوان أن كل ما كان يدور حوله

من اجتماعات، وحوارات سياسية ما هو إلا أكاذيب خداعة أنجرف ورائها دون وعى، وأوقعه في فخاخها فؤاد. فلم يرى غير إيادي مرتعشة. تتقاتل، وتتدرب على القتال مع من. لا يدري!

أما فيما بينهم فكان الترحاب بهم أول يوم وفقط، ومن بعد ذلك لا نقاش، ولا حوار في أي شيء، ولا صوت يعلو فوق صوت السلاح حتى لو على بعضهم البعض. حتى كان اللحظة القاسية والموقف الأصعب على مشاعر مالك حين جاء القائد كما يلقبونه فيما بينهم، وأقدم على قتل أحد المقاتلين معهم لمجرد خلاف في الرأي من بعد مشادة احتدوا فيها على بعضهم بتوتر شديد...

لم يصدق مالك عينيه حين رأى كل هذا الاقتتال، وهذا الكم من الدماء من حوله. فانهار نفسيا لأنه كان مقبل على كل تلك الأمور من البداية كالذي حدث له غسيل مخ. فظل مرغم، ولا يدرك لماذا هو مرغم بهذا الشكل!

لم يستوعب ما أحدثه بنفسه حين ضحى بحياته، وبحبه، وبابنته، وبمستقبله من أجل سراب. ليعرف أنهم جميعا ما هم إلا قطع شطرنج تحركهم أيدي خفية في لعبة كبيرة تتحكم بالعالم. وأن هؤلاء المرتزقة الذي قذف به فؤاد وسطهم ليسوا هم المقاتلين الشرفاء الحقيقيون الذين يدافعون عن حدود وطنهم.

ذات يوم... يحتد النقاش بينه وبين فؤاد ذات يوم. حين كانوا يقومون ببعض التدريبات المطلوبة منهم. ليراه ولأول مرة على حقيقته حين كان يقاتله بشراسة وكأنه متعمد قتله. لتمر الأيام القلائل، ويسمعه مالك ذات ليل. يتحدث مع أخر. أنه قد أطال البقاء بينهم تلك المرة. لان مهمته كانت أصعب من مهامه السابقة.

فمن أتى به هو صديق عمره مالك والذي استدرجه إلى هنا محدثا إياه أنهم سوف يبقيا معا. وصديقه لا يعلم أنه مجرد تاجر وسيط للبشر. ليدرك مالك بعد ان سمع هذا المجرم الذي ظن انه صديقه. ما هو إلا تاجر خرب الذمة. عديم الشرف. إذ انه يتاجر بالبشر.

وبالفعل فقد أتم صفقة المتاجرة به وبأخرين. وسيعود هو لحياته تاركا إياه بتلك الحلبة كي يقضى عليه في تلك الحرب التي دخلها من دون ناقة له فيها ولا جمل!

فما كان منه سوى التفكير بالهروب مع شخص أخر كان غير راضي هو الآخر عما يحدث حولهم. وقبل أن يتمكنا من الهرب. يحاول فؤاد أن يلحق ب مالك ويطلق عليه النار إلا أن زميل مالك انتبه فبادر بالتخلص من فؤاد فأراده قتيلا في الحال في ليلة كانت حالكة السواد حتى عادا. ولا يدريان سوى أن عناية الله هي التي كانت ترعاهم على مدار شهر كامل حين تلقفتهم سيارة كبيرة على الحدود كانت تقل بعض المهجرين الشيشان. لينتقلا بعد ذلك ما بين الحدود وصولا لأوكرانيا.

عاد مالك بعد ما يزيد على شهر بأيام قليلة بيد صديق المحنة مريض، ومضطرب نفسيا. فما كان من روح بعد ان أخبرها الرجل بما حدث. سوى أن اتصلت بالعائلة بالقاهرة للتجهيز لمساعدتهم لهم للعودة لمصر.

فرواتبهم التي كانوا يتقاضونها قد توقفت، والمنح المادية التي كانت توفرها الدولة تقلصت. إلى جانب الشيء الأهم الذي رأت روح أنه غير موجود سوى بين عائلة مالك إلا وهو الأمان. الذي أرادته لعائلتها ولنفسها.

وقد توفر لها ما تمنت من أمان بالفعل بين عائلة مالك بمصر. فما احتاجت لان تعمل وتصرف على زوجها وابنتها. فقد تكفلت العائلة

بكل شيء طوال السنوات، وتفرغت هي لرعاية مالك وشادن. حتى بعد وفاة والد مالك ووالدته ظلت وابنتها ينعمون بخيرهم الوفير والذي ستتركه لابنتها يوم ما هي الأخرى.

تترك شادن سريرها الذي كانت تتكئ عليه، وهي تعد حقيبة باهي للرحيل. وتقترب من امها أكثر، لكنها لا تشعر بهذا القرب الشديد. فتدنو أكثر، وأكثر حتى كادت تختلط بأنفاسها. المتوهجة، وفي عينيها شيء ما يتخفى خلف أشعة الشمس الزائرة لنافذة الغرفة. فبدا وجه روح وكأنه قد تجمد هناك فوق تلال جليد جبال أوكرانيا. بعد أن رسمت خرائط مدن العالم عليه خطوط الطول بعرض الأحزان.

لم تصدق شادن عينيها بأن كل هذا حدث لأمها. في تلك اللحظات التي كانت منهمكة فيها بترتيب الحقيبة. ثم أغلاقها فراحت تقترب بها أكثر. ثم تحدق في عينيها. لتراها مبحرة بزورق صغير عبر نهر الفولجا أكبر أنهار روسيا. لتصبح روح في لحظات ضائعة وسط أمواج عاتية. ليس لها عنوان.

أما دمع عينيها فكان قد تجمد هنا، وآبى أن يسيل فيضه هناك عبر محيط الأحداق. حتى تلاشت وسط دوامات النهر. وما بقي منها أمام عيون ابنتها غير ارتعاشة روح.

***

(15)

تفيق روح على تذكر بعض كلمات كان دونها مالك بين أوراقه بعد عودته كسير. في تلك المرات القلائل التي كان يفيق فيها. معترف بين ذاته بذنبه في حق ذاته. أنها روح التي هي ذاته ونفسه التي يعتذر لها.

ويقول: أراك يا نفسي تتيهي منى غاضبة. ولن تقبلي مني أي اعتذار. وأنا أقر، وأعترف بذنبي. وأعترف بحماقات اختياري أرجوك سامحيني. سامحيني. فكانت تلك هي أقداري. فهؤلاء الجبابرة الذين يمتلكون أدوات الحرب الجديدة على كوكب الأرض. بدء من احتلال عقلي، وبالتالي يتم احتلالي كلية. ثم أتكفل أنا بالباقي. فأبيد نفسي بنفسي. يا نفسي، وهكذا يتحقق حلمهم في إبادة كل من عاشوا، ويعيشون حولي ثم يتركوني، والخراب دون أن أرى عدوى الحقيق.

تنتفض روح وسط غيم ذكرى مشاعر مالك والكلمات. وتعود. تحاول شادن أن تخرجها بلطف من ذاك الجمود دون أن تشعرها بقلقها عليها، وما بدا على وجهها. لتعود بها حيث كانوا. فتطبطب على كتفيها المثقلة بما كان. والذي تذكرها به تلك الأيام العجاف التي يعيشوها بمصر، والمنطقة. ثم ترسم على شفتيها ابتسامة اعتادتها في تلك المحن. وهي تقول. هيييييي. سافرت لوحدك يا جميل؟

روح. تنتبه لابنتها. وقد بدا على انتباهها بعض تشويش، وأن هناك رعشة خفيفة بدت واضحة على يديها، وهي تلوح بهما، وكأنها كانت تستدعى أمان ما بالنداء. وتقول: ها. لا. ابدا حبيبتي. أنا هنا معاك.

شادن. تمسك بيد أمها. كي تطمئنها أنها بجوارها، وكي تطمئن نفسها أكثر على أن امها متوازنة إلى حد ما. فتستأذنها أنها ستتركها لدقائق. تذهب خلالها إلى المطبخ لإعداد كأسين من مشروب الليمون بالنعناع. فتوافق روح.

تنتهي شادن سريعا من إعداد الليمون. ثم تصل لأمها بالحجرة على عجلة من أمرها لتتناولاه سويا. ثم بعد تبادل بعض كلمات بينهم

تعمدت بها شادن إخراج أمها من تلك الحالة التي كانت عليها. سواء بالحديث عن مذاق الليمون المنعش بالنعناع تارة، أو بالحديث عن الصيف الذي سيدق أبوابه عن قريب.

تدرك روح أن ابنتها قلقة عليها. فتبادر هي الأخرى بطمأنتها عليها وبأنها بخير.

قائلة: الوقت سرقنا. يا دوب نستعد للخروج. ونقوم نغير هدومنا.

شادن تداعبها لتأخذها من حزنها الذي بدا واضح جدا عليها.

قائلة: ها تلبس إيه يا جميل. احنا مش قدك. ثم تهم بالوقوف لتأخذها برفق من يديها حتى تتأكد من ارتعاشتهما استكانت قائلة: فلتتفضل البالرينا الجميلة روح. بارتداء ما يحلو لها من ثياب. تصفيق حاد. هههههههههه

تضحك روح. وتصفق معها وهي تقبلها. ثم تستأذنها أنها ذاهبة لغرفتها.

وفي محاولة كبيرة لاختيار البقاء من أجل ابنتها. تحاول روح أن تحتمى بجدران غرفتها. بعد أن أوصلتها شادن لغرفتها. وأغلقت الباب عليها. لتغلق هي أيضا أبواب الماضي المخيف.

ثم تقوم بفتح دولاب ملابسها. وتختار بلوزة بوانتيه باللون الأزرق مع اللون الأبيض. وجيب أزرق غامق. وحول عنقها يلتف عقد من اللؤلؤ الطبيعي، والذي كان قد أهداها إياه مالك في عيد ميلادها السادس والعشرون. بعد زواجهم بعام.

ثم تكمل أناقتها بحذاء من الجلد الطبيعي باللون الأبيض، وحقيبة شانيل من ذات الجلد واللون. وها هي تحاول أن تعطر أجواء أحزانها

بعطر اف سان لوران الذي كان يعشقه مالك. ليفوح بهجة تنعش جنبات البيت، ويلفح معه الذكريات التي بدت تجوب معها بالبيت في رحلة خاطفة توقفت عند غرفة مالك. فتدخل عنده. زائرة لا تطيل البقاء. حتى تنتهي شادن من ارتداء ملابسها.

ويحضر إليهم باهي لمرافقتهم، للخروج خارج البيت. تركن عند مكتبه الصغير. تلمسه بيديها الرقيقة. فتقع عينيها على كتيب صغير للشاعرة جليلة رضا. لا يفارق ذاك المكان منذ أن أهدتها إياه حماتها السيدة نيروز كي تتمكن من اتقان اللغة العربية، ومن قراءة الأشعار التي أحبتها من خلال صوتها الذي لا ينسى حين كان يتغنى شعرا. فتتعلق أكثر، وأكثر بالكلمات، وتذوب معها في تفاصيل الحكايات كلما جلست لجواره. إذ كان ينام هو على سريره مخذول الوجدان.

وقد لا يدري معظم الأوقات أنها ماكثة إلى جواره بالساعات الطويلة. هي والكلمات، ليتراقصا هناك فتراه وهو يتحسس يديها. يحاكى في حضن عينيها كل الأساطير. ثم ينطلقا سويا خارج ذاك الحيز الضيق من الغرفة. فللروح متسع آخر يشتاقهم دوما في كل ليلة. للوقوف على مسرح البيلشوى. وها هي حتى وان لم تكن دونه الآن بتلك الحياة لكنها ما زالت معه في صحبة الذكريات، والكلمات على مسرح البيلشوى فتقرأ بعينيها المسافرة إليه عبر ترحال الروح.

وتقرأ بصوت الهمس لتحيي الروح من قصيدة: حين أراك.

أنا حين أراك أحس الأشياء السهلة

أمنح كل عذابات حياتي مهله

أكسر مرآتي. أرجع طفله

أهجر عاداتي. أعتزل اليأس أغلق أبواب مغاراتي الجبلية
أقفز من فوق النافذة الخلفية لأسير أمام الشمس
أرتكز عليك
أنا حين أراك أجوب بساتيني اللغوية
أستخدم كل الأنوال لأحوك فساتيني اللفظية
في حجم الأفعال ولكي تبدو ناصعة، ملساء، نقيه
أتحاشى الخدش، أتلافى اللمس
وأزركش كل زواياها بخيوط الهمس
كي تبهر عينيك.

***

خدعوك فقالوا

نفس المكان الذي ما مل منهن أبدا مهما طالت بهن حكايات أيام وليالي السعادة والشقاء وما ضجر من حمل حقائب الشكوى. ووضعها على ذات الطاولة حتى تصلن إلى نقطة التقاء لأي من محطات التسوية بالحياة، لتجاوز محن الدنيا، والتي ما مر مذاق حلاوة أوقاتهن بتلك الدنيا دون شعور بمرارة على مر أيام وليالي الزمان!

حتى ضجيج ضحكات تلك الحكايات التي كثيرا ما تناثرت بينهن وتطايرت هنا أو هناك. لتلفت أنظار القاصي والداني إليها. ما سلمت من حسد أحدهم لهن. أو تلك الأوقات الحزينة التي فرت إلى هنا. محاولة أن تحتمى معهن حين اختبأت في عيون تبتلع دمعها بابتسام كلما قابلهن أسى! كل هذا وأكثر ما كان له من صدر يتسع، وقلب يحتوي سوى على تلك الطاولة.

في منزل أسرة زيزي دقات هاتف المنزل هي التي أخرجتها من شرفة ذكرياتها المطلة على النادي، والمختبئة بين جنبات تلك الطاولة، إذ كانت تتنسم بالشرفة رائحة الذكريات التي تنتظر لقاء جديد مع صديقات العمر.

زيزي: ألو.

ديدي: هاي زيزي.

زيزي: هاي ديدي وحشتوني كلكم.

ديدي: وحشناك يا هرابة. ليه كل الغيبة دي؟! بجد وحشتينا جدا.

زيزي: ظروف والله.

ديدي: الظاهر كده أن التجمع أحلى من الزمالك عشان كده خطفك مننا.

زيزي بصوت كسير: لا أبدا.

ديدي: كفاية كلام في التليفون. منتظرينك بالنادي. متتأخريش علينا. هههههههه. ما هو موش معقول تبقى ساكنة قصاد النادي وتوصلي آخر واحدة فينا كل مرة هههه.

زيزي: هههههه نازلة على طول.

لم تزل أميرة وزيزي وديدي صديقات مخلصات. تحمل كل واحدة منهم هموم الأخرى. وبالرغم من مرور السنوات. إلا أنهم باقيات على العهد لتلك المراحل الندية من طراوة العمر، وعلى ذات الطاولة التي لا يغيرها الزمن باقيات، وحتى وأن طالتها يد الغياب. وأثرت عليها عوامل التعرية.

فسرعان ما ستكتشف أن تلك العوامل كانت مجرد قشرة خارجية تبدو على السطح وفقط! لذا لا يمكن لك أن تشعر حين تجلس بينهن أنهن قد طالتهن إيادي الزمن، وعبثت في براءة جوهر الأيام. حتى وأن مرت بينهن سحابة صيف طارئة. تماما كما نحن، وكما يحدث لنا بالحياة. حين تكون طبيعة ارتباطنا بأشخاص بذاتهم، وأماكن محددة بعينها طاغية الحضور ولا تعترف بالغياب. فتحمل لنا أيام الغياب رائحة ذكريات أيامنا معهم، هنا أو هناك. فتلفحنا نسمات الدفء. وطراوة اللحظة. شعور مغاير لتلك اللحظة التي هربنا فيها منهم إليهم. لنعترف أمام حواسنا الحية أن للأماكن رائحة. لا يمكن لها أبدا أن تموت!

وغالبا ما تكون في مخيلتنا أثناء البدايات أن طبيعة تلك العلاقات قوية، وأنها وأماكنها بعيدة كل البعد عن أن تطالها يد التغيير. وإن حدث ما نخشاه يوم وتغيرنا. تطوف بنا توابع زلزال الفراق. وهو ما يجعلنا نشعر بأن ذاك التغيير وجع. لا يمكننا احتماله. لذا لا نتقبل بسهولة فكرة أن يطرأ هذا التغيير على علاقتنا بهؤلاء الأشخاص أو بتلك الأماكن. وإن حدث يستوقفنا السؤال: ما هذا الذي يشقينا في بعدهم؟!

أليست كل تلك الأمور التي أودت بنا للفرقة من البديهي، والطبيعي جدا أن تحدث معنا أو معهم. أو منا أو منهم. بفعل عوامل كثيرة أقساها طبيعة غدر الزمن. وأرحمها طبيعة تلك الظروف الطارئة أو القاهرة؟

وفي الغالب ربما تجدنا نخشى الاعتراف أنه بالفعل هناك شيء قد تغير إن لم تكن أشياء قد تغيرت بنا أو بهم! أو ربما لو كان الصدق هو ما يملأ القلوب، ويطهر النفوس. ستجدنا مثل أصحاب الطاولة، وكأنه لم يحدث بيننا فراق!

وها هن الآن وقد أوشكن الطرق على أبواب الستين عام. كما البدايات. تقف كل واحدة منهن على حقيقة مؤكدة، وهي أن الفارس الوحيد الذي كان قد جرفه شاطئ الأحلام بينهن كان من نصيب الجميلة أميرة.

إنه المستشار عصام والذي أثمر زواجهم عن ابنتين، إحداهما تزوجت ومستقرة، والثانية زيجتها للأسف كانت فاشلة. لذا آثر والدها السلامة، وكان أهم شيء بالنسبة له. هو الخروج بابنته بسلام، بالمحافظة على سلامتها النفسية لتبقى في بيت أبيها مطلقة. ومعها طفلة صغيرة في رعايتهم. وهذا كان خياره الأخف وطأة على ابنته وعليهم.

لم يتقبلوا أن تبقى ابنتهم زوجة لشاب مدمن. مستهتر. بل وميؤوس من إصلاح حاله. فكان ذلك الحدث الذي نغص علي أميرة، وزوجها الحياة. ليصير بقاء حال سعادة الأيام من المحال!

ولتعلن الأقدار أسفها على العلاقة الطيبة التي كانت تربط بين العائلتين: عائلة أميرة، وعائلة زوج ابنتها فانقلبت كل الأشياء رأسا على عقب وحدث الفراق.

وهكذا أحيانا قد نجد أن بعض العلاقات بين البشر معرضة للكثير من انحناءات الزمن رغما عنهم، وعلى الرغم من حزن أميرة على حال ابنتها. وقلقها عليها من الزمن، خاصة بعد أن كبرت هي وزوجها بالعمر. إلا أنها هنا بالذات وعلى تلك الطاولة تنسى أسى الأيام، وسرعان ما تعود الضحكات ساخرة من كل الأشياء الموجعة على طرقات الحنين لأيام كانت بلا أدنى مسئوليات.

بدا تجمعهم في الفترات الأخيرة قليلا نظرا لاختلاف الظروف، وتغير طبيعة أوضاعهم الاجتماعية إلا أن هذا لم يمنع خيالهم البريء من الغوص في بحور ربما أغرقت أحلام جميلات نادى الزمالك. ثم جرفتها على شواطئ شهد الأمنيات. والتي لم تتحقق لهم الكثير منها أثناء رحلة الحياة.

عادت الضحكات رغم كل شيء تلتقي على الطاولة. حتى لو ظلت تروح، وتجيء؛ بينهم ساكنة في جوف كل تلك السنوات عصية على الاتيان براحة البال.

لا تصحو على فرح، أو حزن الليالي والأيام إلا هناك على الطاولة. تصل زيزي متأخرة بالفعل عنهم. لتضج الطاولة بالقفشات والضحكات. وهكذا هو حالهم كلما كانت المواقف أصعب من الاحتمال!

زيزي بتلك العيون السوداء، والرموش المنسدلة كستائر ليل حزين. لم تذل تحمل تلك النظرة البريئة الساكنة في كحل الأحـزان. هذه الأحزان التي كلما أرادت أن تهرب منها. آتت تنكش في خزائن أسرارها، وأسرارهم، فتمسك بها لتحولها لضحكات غارقة في بحر الدموع.

وحين يضج المكان بالضحك. تكسو بشرتها الخمرية حمرة الخجل، وتمسك بأطراف أصابعها أطراف شعرها الأسود، وتطلقه للخلف، وكأنها ترمى بالهموم خلف ظهرها لتبدو بينهن وكأنها قد رجعت بتلك الفتاة الصغيرة التي كانت من سنوات بعيدة. تسكن في حضن هنا الأيام قبلما تقسو عليها!

لكن هذه المرة لم تعد تجدي أية قفشات أن تأخذ بالوقت، وتمرح في صخب صحبتهم، وصحبة الطاولة. من كثرة ما ضيقت الدنيا عليها! فبدت حزينة كسيرة على غير العادة. يتناولون الغداء ثم يتبادلون حديث الود.

أميرة: طمنينا عليك يا زيزي.

زيزي: لا جديد.

ديدي: وأبوهم طبعا ولا حاسس بيك. ولا بيهم!

زيزي: ومن امتى خالد كان عنده إحساس؟

يتوقف الحديث عند هذا الحد، لتتناولن جميعهن مشروب الشوكولا الدافئة باللبن، والذي يدفئ بعض الشيء مشاعرهن المجبرة على التعايش مع هذا الصقيع الذي كان قد سكن عنوة في غفلة من الزمن.

تغيرن الحديث كي لا ينتهي بهن اللقاء على قتامة مواقف الأيام. يعم المساء، ويأتيهم الليل مصاحب النجوم التي دوما تجاور القمر، ليعودوا مصافحين صفو السماء.

ديدي. تعود لمنزلها بأحلامها الأكثر واقعية، وأريحية.

تعترف أنها ظنت يوما ما أنها ستطول عنان السماء. وقت ما خيل لها أنه بزواجها من هشام قد طالت يديها تلك النجوم، وانتظرت حتى تبلغ سكناها معه بالقمر، لكنها لم تكن تدرك حينها أن القمر عالي! إذ لم يكن ارتباطها وصبرها كل هذا العمر والذي قارب على العشرين عام ب هشام. المهندس المعماري سوى لأن ترزق منه بولد أو بنت. تستثمر فيهم رحلة البناء لأماني وأحلام المستقبل؛ فظلت تثابر حين، وتيأس أحيان كثيرة!

وللأسف لم يحدث حمل أبدا رغم أن جميع الأطباء أجمعوا على أنه لا يوجد مانع على الإطلاق من الطرفين! ولكنها حالة من الحالات النادرة التي يقف الطب عندها منتظر أن يحدث الحمل أو يقف عاجز عن وجود حل!

وهكذا صارت السنوات خاطفة معلنة ديدي جم غضبها ورفضها لهذا الرجل الذي ما أحترم شيء غير نزواته! ثم قبل انفصالهم، وفي الفترة الأخيرة التي بلغ فيها يأسها ذروة سنواته. ليعلن أنه لا أمل على الإطلاق في تحقيق الحلم!

وهكذا ظلت العلاقة متوترة جدا ما بين عصبيتها، وغضبها من نفسها التي ارتضت، وحظها الذي أوقعها برجل متصابي عاشق لصداقة الفتيات الصغيرات. غير ملتفت لمشاعر زوجته حتى تم الانفصال.

تعود زيزي لتبيت ليلتها مع امها السيدة المسنة. لتجدها نائمة. لتثقلها مشاعر خاوية الوفاض من كل شيء يطمئن.

عاملة المنزل التي تراعى امها المسنة مستيقظة. تشاهد التلفاز. ما أن انتبهت لوجودها. حتى وقفت على الفور لتلبية طلباتها. فتهمس

لها زيزي أنها لا تريد شيء. كي لا تزعج والدتها النائمة، ثم تذهب في هدوء لتنام في حجرتها التي ما زالت مخلصة لها في زمن قد ندر فيه الإخلاص، فترى الحجرة، والجدران يرقصان فرحا بها. وكأنهم العائدين معها لزمن الطفولة، والشباب. فيحتضناها في ترحاب.

تحاول ن تنام وهي تستدعى حضن ذكريات أحلى الأوقات قبلما تلتقي خالد.

صباحا... عادت بعدما تناولت طعام الفطور مع والدتها التي ترفض الذهاب للتجمع الخامس. بالقاهرة الجديدة.

معتبرة أنها لو ذهبت ستكون كمن يعيش في المنفى. فتودعها محاولة أن ترسم الضحكة على شفتيها كي لا تحمل أمها همها فلم يعد في عمرهما ما يحتمل!

3/ التجمع الخامس.

تعود وهي تحمل بين ضلوعها آسى ما اقترفه خالد في حقها وحق أولادهم. وكأنه يتجسد أمامها الآن. وكلما دخلت تبيت ليلتها في منزل الأسرة. الممتد عقد إيجاره منذ أكثر من ستين عام. وقتما تزوجا والديها وأنجبوا زيزي وأختها التي تزوجت من مهندس معماري واستقرا منذ هاجروا إلى كندا. منذ أكثر من عشرين عام، ولم يتبقى معهم بالقاهرة بعد وفاة الوالد سوى أخيها دكتور مهندس وليد والذي تزوج بعد تخرجه من كلية الهندسة. ثم أتم بحصوله على الدكتوراه في الهندسة حلم حياته وأستقر مع زوجته وأبناؤه الثلاثة في حي الزمالك.

أما عن علاقته بإخوته البنات وأمه فهي علاقة أشبه بعلاقات صلة الأرحام الشكلية. وليست المتعمقة في أصول صحيح الدين.

بعد أن زوجت ابنتها صارت وحيدة مع ابنها في تلك الشقة التي قد اشتراها والدها في إحدى كمباوندات التجمع الخامس أبان الألفية الجديدة.

جاءت إلى هنا بعد أن ظلت لأكثر من خمسة أعوام تستنزف كامل راتبها في الشقة التي استأجرتها بحي الزمالك بعد انفصالها عن خالد.

وكما باتت ليلة سكن الحلم فيها أعتاب الرحيل في حي الزمالك ها هي تخشى من ضياع ما تبقى من أحلام الأيام. قبل أن تطمئن علي ابنها الأصغر.

تسير في الشقة. ثقيلة الخطوات منذ أن فتحت الباب. وما زالت مطبقة على يديها خجلي من فتحهما. ووضع المفاتيح في مكانها كغريب لم يعتاد المكان بعد!

وحتى بعد أن مر بها الوقت. ووضعت سلسلة المفاتيح. تجدها ما زالت مرتجلة الخطوات أيضا. تخشى أن تجرحها قيود كانت قد فرضتها على نفسها منذ أقنعها اخوها بالعيش في هذه الشقة. فتجدها تتعامل بحساسية مفرطة. كي لا يفقدها ما عانت منه وعاشته مع خالد وأسرته. نبل إحساسها بالآخرين.

حتى وأن كانوا أخوتها. فهي مدركة أن الشقة ليست ملكها وحدها وهي بالأخير ميراثها معهم. ثم تلقي بأنفاسها التي أرهقها اللهث وراء خيبات زيجة فاشلة على الفوتيه.

ذاك الفوتيه الذي لا تجد راحتها سوى بين ذراعيه. فما تلبث أن تتحسسهم لتستند عليه. لتغلبها السكينة.

تنظر حولها وكأنها كما كانت تلف وحدها في مـدارات تلك السنوات التي اجتهدت، وتعبت فيها كي تقتني قطع الأثاث تلك.

والتي تمسكت أن ترحل بها. لأن كل قطعة منها كانت جزء عزيز جدا يحكى حكاية من أيام عمرها الذي ضاع معه. هذا الذي ما عرف سوى الاتكالية عليها أو الاستغلال.

لذلك حينما جاء وقت الرحيل. تركت لخالد الجمل بما حمل إلا من بعض ما يخصها من مقتنياتها.

تتأمل عيناها وملامحها في المرآه، وكعادتها يخطفها هذا الشعور أن تلك المرآه التي ترى فيها نفسها أكثر حظا منها.

فتلك المرآه التي أسعدها حظها بالوقوع بين يدي صانع ماهر أعتنى بها. ووضعها بين أحضان إطار غنى بنعومة الملمس. وفي ذات الوقت قوى في الحفاظ على المرآه دون سقوط! وبالرغم من أنه رسم الإطار بلون الأحلام الوردية. إلا أنها كانت والا زالت أحلام متحققة البقاء. بهذا الرونق. وتلك الروعة.

تحب هي رونق الأشياء وروعتها بقوة جوهرها.

وعلى الرغم من كل تلك القوة الظاهرية التي تبدو على زيزي. إلا أنها وبعد أكثر من عشرة سنوات على الانفصال. والذي ما ندمت عليه أبدا. تجدها ما زالت حائرة الخطى بين ما مضى، وما تخشى من أن تكتبه المقادير على جبين ابنها الأصغر.

والذي ما زال يعيش بين أحضان أيامها حامل معها عبئ القلق على ما هو أت.

خائف من أن يصبح في الشارع ما بين ليلة وضحاها لو أن حدث لأمه مكروه. أو لو قررت عائلة أمه بيع شقة التجمع. لتوزيع الحقوق.

فما سيتبقى لهم من إرث لن يشترى شيء.

لكنها لا زالت تملك الرؤية الواعية بأن الزمن اختلف، واختلفت معه نظرتنا للأمور.

ولا زالت غير يائسة من وجود حلول.

ويستمر السؤال لتتبعه بكثير من التحليلات للمواقف التي لا نحسد عليها جميعنا.

وتسأل نفسها من أين أتت إليها كل تلك الألآم؟

وما هذا الكم من المعاناة الضاربة بقوة، وبفوضى لتربك مسارات أولويات حقوقنا في الأمان بتلك الحياة؟!

وهل نحن المذنبون في حق أنفسنا حين أغرقنا جميع مراكبنا وانتحرنا في بحور العطاء حد السفه؟

ولماذا ارتضينا أن تصبح حقوق أنفسنا علينا أخر أولوياتنا؟

وهل نحن الجهلاء، والبلهاء حين صدقنا الحلم؟!

ولما لم نترك لأولادنا الحق في ترتيب أولوياتهم أو حقهم في ركوب الأمواج كي يتداركوا المعنى الحقيقي لإحساسهم بالنجاح، وهم يتصدون لمعظم صدمات ومسؤوليات الحياة؟!

للأسف جبنا بدافع محبتنا لهم، وخوفنا عليهم من تلك الصعوبات وتركنا أحلامهم تتقوقع على ضفاف الجانب الآخر الهادئ من النهر. ولم نعطهم فرصة السباحة ضد التيار!

فغرقنا بهم، ومعهم في مشاكلهم.

وخدعونا فقالوا. الحياة تبدأ بعد الستين!

دقات الموبايل.

زيزي: أهلا أميرة.

أميرة: مفاجأة حلوة عشانك.

زيزي: أكيد كل حاجة منك حلوة حبيبتي.

أميرة: بلغة عربية تداعبها كي تخرجها من أحزانها التي تعلم تماما أنها ترافقها متى دخلت شقة التجمع، وأغلقت بابها عليها.

لتجتر خيبات ما مضى بكل أحزانه.

تقول. قالوا. أنه توجد طاولة في نادى بالتجمع. تشبه طاولتنا في نادى الزمالك.

فقررنا أن نتجمع. هههههههه.

ها تروحي مننا فين؟! انزلي بسرعة.

زيزي: هههههههه.

ثم تختطف ديدي موبايل أميرة. وتضحك قائلة: أكيد المرة دي ها ندخل النادي مع بعض.

زيزي: هههههه أكيد. تصل إليهم مسرعة وكأنها كانت بانتظار مجيئهم كي ينتشلوها من غيم الأحزان!

وكأنهم جميعا أرادوا أن يكون لهم حلم ينسجون أيامه سويا. كما اعتادوا على طاولة حياة تبدأ بعد الستين. وكأن تلك الطاولة لم يعد يهم أين مكانها!

فالأهم أنها تجمعهم. بعدما صارت بالفعل رفيقة الصحبة، ومتلازمة الزمان والمكان. تشاركهم اشتهائهم متعة البقاء فيما بين مدن حكايات الزمن الجميل الذي كان. ولم يتبقى منه سوى الفتات. حتى

بدا ترحالهن بين محطات الذكريات. أمل لا يملون تكرار البحث عن أسعد ما فيه.

ولو تعدد تكرار استدعاء كل تلك الأوقات والمواقف، أو مهما بلغ مداه. هم يدركون مدى متعة سعادة اللحظة. بقفشات وخفة ظل أوقاتهم التي كانت. وما زالت. لذا مهما مر على تلك السنوات، ومهما طال أو قصر مكوثها بحلوها ومرها بين الوجدان. أو طافت معنا بين الأيام. سوف نجدها اليد الحانية التي تربت على أكتافنا كلما دارت بنا الحياة واجتزنا صفعاتها.

لذا ظلت هذه الطاولة وهذا المكان كلما كبروا صار يكبر معهم، حتى صار متسع للقلب، والـروح. وأن تجاوزت علاقات القرب والبعاد فيما بينهم، وبين الطاولة ما يقارب على الخمسة والثلاثون عام. فكل اللقاءات التي كانت شبه يومية، ودائمة معظم الوقت كانت قبل أن يتزوجوا، وصارت حتى بلغوا من العمر الخامسة والعشرين.

وبالرغم من بلوغهم هذا العمر وقت زواجهم إلا أنهم لم يتعلموا السباحة عكس تيار غدر الأيام. فكل سنوات العمر أن ذاك لم تكن تسبح منامتها سوى في بحور فارس الأحلام الوردية، وطيب ود العلاقات السوية بين البشر. وها هي ضحكاتهم تتناثر بينهم لتدب الأمل في الحياة من جديد. تطوف جميلات حي الزمالك بالسيارة بالقاهرة الجديدة، وكل واحدة منهم تضحك حد البكاء.

عل تلك الضحكات تغسل ما وقر في القلوب من آلام، وتستقبل الأيام بروح جديدة. تصلن للطاولة الجديدة. لتتساءل عيونهم الجميلة وهم ينظروا إلى الطاولة الجديدة. هل ستظل ثابتة في ذات المكان كما

كانت طاولتهم بالزمالك؟! وهل سيتبقى في العمر سنوات. لتحتفظ هذه الطاولة بأسرار حكاياتهم سنوات تلو السنوات كما مضى؟!

تجلس كل واحدة أمام الطاولة الجديدة وكأنها بالفعل تحتضنهم كما الأخرى، وها هي كما صاحبتها المجاورة لذاك الركن البعيد بنادي الزمالك. مطبقة عليهم بين زواياها الحانية كي لا تطالهم أذان وعيون الغرباء الجدد، وهن تتناولن الشاي الدافئ بالنعناع مع الجاتوه.

***

لا تنزوي

(1)

ثمة حكايات للأيام، ومواقف بالحياة. تخبرنا في لحظة فاصلة أننا لا بد لنا ان ننزوي بعيدا عن الوجع. فمرارة التجارب هي التي تكفلت بالبعاد، وربما تجدنا احيانا نفضل ذاك البعاد دون ان يصل للطرف الآخر أي شيء يدل على اننا نشعر بشيء ما ملموس أوجعنا. أو ربما يكون هناك ثمة أحداث معينة. ما وضعنا تحتها أي خط يوما ما. لأننا ما أردنا أن نتمسك بطرف خيط، كي لا يكون بأيدينا أي دليل أدانة نثبت به حقنا. فهذا كله ربما يصير غير ذات أهمية. حين يشتد الوجع. وقتها تتملكنا وتسيطر علينا حد اليقين مشاعر خفية بانه قد حان ميقات الرحيل.

وما بين سنوات أحزان عشنا فيها. وما سمحنا لها أن تعيش فينا! أو سنوات ما قدرها أحد! ولكن نحن نعرف قيمتها. لأننا مدركين تماما لقيمتنا. نتوقف. لنكتشف أن هذا الحد الفاصل آن أوانه. وأننا قد وصلنا لمحطات الغياب. سواء كان يحمل معه دموع أحزان أو أفراح لن نخجل منها. ولن نحاول ان نداريها لأنها إنسانيتنا. التي يجب أن نسمح لها بالخروج من تلك المنطقة الرمادية. والهروب من القوالب الجامدة للمشاعر، وهذه الأحاديث الجوفاء التي مللنا منها عن الممكن والمسموح. والتي لا بد أن تتوقف حين تطالنا يد الخذلان.

وقتها سندرك أنه ما عاد للقلب قدرة على الاحتمال.. فننزوي ولو لبعض الوقت حتى نستطيع لملمة أنفسنا ووضعها على الطريق

الذي تستحقه. وظنا ممن أوجعونا للأسف. يعتقدون أن هذا فرار. أو هروب خشية الاعتراف بخسائرنا الفادحة غير مدركين أننا قد حققنا أكبر انتصاراتنا بتلك الحياة لان هذا الهروب وذاك الفرار. هو القرار الصائب جدا بالنسبة لنا.

وقد يمتد الهروب لسنوات. أما الفرار فغالبا ما يطال العمر كله! وبالأحرى لن يكون هذا الهروب أو ذاك الفرار بالمعنى المعتاد لدى ذوي النظرة المحدودة. بعدما يصبح ضرورة ملحة ويصير هو الملاذ الأخير، والآمن لنا كي ننجو بأنفسنا وبما تبقي منا.

وهذا ما حدث في هذا المكان الخالي من ضجيج المنافقين، واندهاشة مدعي المثالية في ذلك العالم الأناني. ستغلبنا مشاعرنا المرهفة هنا بالذات. على التوقف عن سباقات الشد والجذب. أو عن هذا الاستسلام الغبي لهذا السخف. أو النفاق المعتاد. والاعتراف بأننا قد اجتزنا كل الممكن والمستحيل قبلا. ولكنا فشلنا في التمثيل على هذا المسرح العبثي.

ولا يبقي لنا غير الأمل. من أجل الارتكان عند تلك المحطة التي ربما قد تكون الأخيرة. أو ربما قد تكون بداية جديدة للوقوف عند محطات عديدة نختارها نحن ولا تفرض علينا بالحياة.

فهذا الجو الهادئ جدا هنا. رغم صخب الذكريات مدهش. مدهش. حين تستدعينا تلك الذكريات. ومثير جدا للوجدان. وثمة حقائب محملة بالكثير من الحكايات.

فهذا دكتور إيهاب أستاذ جراحة المخ والأعصاب الشهير. وكيف أنه قد رسا به المطاف بعيد، وحيد بعد كل هذا العنفوان في بناء ذاته،

وهذا الجهد في أعداد هذا الصف العظيم من تلامذته الأطباء. الذين تتلمذوا وتدربوا على يديه، وكيف أنه بذل قصارى جهده في بناء أسرته، وتربية أولاده. الذين منهم من فضلوا الاستقلالية. ومنهم من فضل عدم الشعور بقيمة وجوده في حياتهم.

ومنهم أيضا من أدخله في مشاكل لا طاقة له بها. كتلك المشكلة التي أقحمه فيها ابنه الطبيب حين تزوج على زوجته، وأم أولاده من امرأة مستهترة ذادت من أعبائهم النفسية. بهذا الكم من المشاكل التي كانت تثار بينها، وبين ابنه إضافة إلى الأعباء المادية التي لا تحتمل فهي من البدايات كانت طامعة في ابنه، وفي العائلة.

والابن الآخر ومشروعاته المتعددة الفاشلة. التي قام بها غير معترف بالعمل بشهادته، وتخصصه في مجال الهندسة الإلكترونية، وغير معترف أساسا بفشله في أي مرة على الأطلاق. أو انه ورط ابيه. ماديا ومعنويا معه. ففضل البعاد عن أولاده الذكور. خاصة ان كل واحد منهم من المفترض أنه كان قد استقل بحياته. خاصة أنه من بعد تأزم الوضع الصحي لزوجته جراء حزنها الشديد من تلك الهموم ووفاتها. صار وحيد بالفعل. إذ كانت هي اليد الحنونة التي تعينه، وتربت على كتفيه.

يتذكر كيف كان جيله. وكيف كان هو في مقتبل عمره يقضي الأجهزة الصيفية في أي من المدن الأوروبية، وعلى نفقته الخاصة للعمل هناك، وكان هذا هو نهج كثير من شباب جيله، ونهج عائلاتهم في الإجازات الصيفية لمعظم الطلبة الجامعيين. فما حدث مع إيهاب حدث مع كل أصدقائهم في هذا الزمن شريطة النجاح، وبتفوق.

فهذا كان نهج زمن المتفوقين على أن يكون ثمن التذكرة معد قبلا من المصروف الشخصي الخاص بهم، ومن ثم ستعوض كل تلك

المصاريف، وأكثر من عملهم الصيفي في أي بلد أوروبي. يكون لأي منهم حرية اختيار العيش فيها، ستجد أنه في تلك الفترة من منتصف وأواخر ستينيات، وسبعينيات وحتى بداية ثمانينيات القرن الماضي.

في إحدى كمباوندات المدن الجديدة. شقة صغيرة، وأنيقة بالدور الأرضي تطل على حديقة صغيرة يرعاها بحنان دكتور إيهاب دقات الموبايل...

سالي: دكتور إيهاب حضرتك جاهز.

دكتور إيهاب: جاهز يا فندم هههههه.

تضحك سالي وهي تقول: بانتظارك. ثم يغلق الموبايل على ابتسامة. ويحادث نفسه بأن السهرة ستكون جميلة.

سالي أغلقت التلفزيون على تلك البرامج السخيفة التي تستجدي مشاعر الناس، أو تمزقها أحيانا بعدما اتصلت بصديقيها في الكمباوند دكتور إيهاب. والمهندسة رضوى. فقد أعدوا جميعا العشاء.

لينزل كل منهم إلى حديقة الكمباوند. وفي يده علبة مغلقة على أصناف من الحلوى والسندويتشات، والمشروبات المختلفة، والماء. ليجتمع ثلاثتهم على أنغام الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ كانت سهرة الليلة من اختيار سالي التي دائما في يديها كاسيت صغير. ليصير جميعهم مستمتع في هدوء.

تنتهي السهرة الممتعة على قفشات وابتسامات الصحبة الطيبة. ثم يودعون بعضهم علي وعد باللقاء غدا على الغذاء في نادي الكمباوند. كما وعدوا أستاذ رفيق الذي سيعود غدا لينضم إليهم.

تدخل رضوى منزلها من بعد عودتها من العشاء، ومن بعد أن مارست رياضة المشي التي تواظب عليها يوميا. لتكمل السهرة أمام التلفزيون. ثم تغلقه، وتمسك بالورقة والقلم كي تكتب قصتها الجديدة. فهي بعد ان تركت العمل في هندسة المنشآت الصناعية. تفرغت للكتابة. مقررة أن تكون أولى مجموعتها القصصية عنهم.

أحد الأيام. وقت الغروب...

سالي. ووقت ما بعد الغروب، تركن للذكريات. تنظر لورودها التي ترعاها وتحنو عليها. كما كانت ترعي وتحنو على من لا يستحقون! ثم تقوم، وتجلس عند مكانها الذي تعشقه بشرفتها بالدور الثالث والتي ملأتها بالزهور. لتطل على كل أرجاء الكمباوند. تأخذ نفس عميق. ثم تخرجه. وكأنها تنفث فيه مرارة ما كان!

بعد أن استوقفتها الأيام بين زوايا الآلام هناك. وحددت هي إقامتها هنا. لكنها هنا بكامل أرادتها، وبمنتهي الرضا. أما أسعد أوقاتها. فهي تلك التي تكون فيها معهم. أو تلك الأوقات التي تقضيها لإعداد بعض الأطعمة الخفيفة، والبسيطة لهم جميعا بمساعدة رضوى. لترى أن الحياة هنا مع هؤلاء طيبة ذات مذاق مختلف. مع الصحبة الطيبة التي اختارتها بعناية فائقة من أهل الكمباوند.

فهي أول من حطت الرحال منذ أكثر من خمسة عشر عاما. لتبدأ حياة جديدة مع نشأة تلك المدينة الجديدة، وكمعظم ظروف صحبتها. كانت ظروفها. فجميعهم هنا هاربين من لهيب من كانوا بالأمس القريب أقرب إلى القلب والروح، أو ممن كانوا قد سكنوا واستوطنوا الوجدان قبلا لكنهم هاجروا. وهجروا!

يوم جديد...

تشاهد سالي إحدى البرامج التليفزيونية الاجتماعية. فتجد الجميع يبكي بحرقة شديدة في الأستوديو الكبير. على ما فعله هؤلاء الأخوة بأختهم. والتي كانت بمقام أمهم يوما ما. لتراهم خلف شاشة التلفاز يعيدون صفعاتهم لها صفعة تلو الأخرى. ويسلبونها كل حقوقها. أما هي فلا تذرف أية دموع عليهم. فقد جفت في مقلتيها كل الدموع.

تغلق التلفاز على تلك البرامج السخيفة، والتي تقول عنها دائما أنها تستجدي مشاعر الناس. أو تمزقها أحيانا! تتصل كعادتها بأصدقائها في الكمباوند دكتور إيهاب. والمهندسة رضوى والأستاذ وفيق بعدما عاد من زيارة الطبيب المعالج له فقد أعدوا سهرة جديدة للعشاء.

أستاذ وفيق. أستاذ علم النفس في جامعة القاهرة سابقا، والذي عاش الأيام بطولها وعرضها. يرفض الزواج. ثم بعد مرور الزمن سارق منه أحلى أيامه. يكتشف أنه كان مخطئ، وبعدما بدت عليه علامات اكتئاب عرفها هو، وخاصة حين كان يرى أخوته وسط أسرهم. ويرى نفسه وحيد.

لذا فضل أن يعالج نفسه من تلك الحالة النفسية. بالعطاء لأولاد أخوته. وكأنهم أولاده. وبالأخير فضل أن يترك شقته لتتزوج بها ابنة أخيه. مقرر أن يبقى مع تلك الصحبة. بعد أن أشترى شقة صغيرة في هذا الكمباوند، وكأنها كانت أجمل ما أهداه القدر. وهو الآن سعيد بحياته، ولا يفكر بالزواج. خاصة في مثل هذا العمر. أو كما يقول عن نفسه وهو يضحك ساخر من ذاته. أنه يعرف أن لن تتحمله امرأة غير أمه رحمة الله عليها. فآثر السلامة.

يعاني من بعض أعراض بسيطة لمرض السكر، والضغط فيتعامل مع الطعام بحرص شديد. وهاهم جميعهم غالبا كل يوم يتجمعون في حديقة الكمباوند وعلى أنغام أم كلثوم كانت سهرة هذه الليلة من اختيار دكتور إيهاب.

جميعهم يستمعون في انسجام. بعدما أحضر لهم صديقهم الرابع كابتن على الشاي بالنعناع. الذي احيانا ما يطل عليهم ومعه هذا المشروب الذي يفضلونه من يديه.

كابتن على... كان مدرب لكرة السلة في نادى الجزيرة. تركه ابنه الوحيد. طبيب الأطفال، وهاجر مع زوجته الطبيبة إلى كندا، ويظل بالشهور دون سؤال عنه. رغم انه مكث على تربيته رافض الزواج بعد وفاة زوجته. وبدلا من ان يستسلم للأحزان على فراقه. أغلق شقته، وأتى إلى هنا.

تنتهي سهرتهم، ويعودون إلى منازلهم، وتعود دينا من سفرها ومن تلك الزيارة الاعتيادية التي تقوم بها شهريا لدار المسنين، ودور الرعاية الاجتماعية. لرعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.

تتصل سالي وتخبرها بأنهم قد افتقدوها. وتطمئن عليها. خاصة بعدما تأخرت عن موعدها. ولم تحضر معهم العشاء والسهرة، وأنه قد فاتها سهرة رائعة مع الست أم كلثوم.

تعتذر دينا بشدة وتشكر سالي على اهتمامها خاصة أن سالي وجميعهم مدرك مدي أهمية تلك الزيارة عند دينا فتلك الجولة الشهرية التي تقوم بها لملاجئ الأيتام، ودور الرعاية الاجتماعية لذوي الاحتياجات الخاصة. تهديها أجمل مشاعر يمكن أن يحتاط بها الإنسان من غدر الزمان.

فبعد قصة حب، وزواج فاشلة. أثمرت عن ابنها نبيل المعاق إعاقة كاملة. ذهنيا، وجسمانيا، وبعد مشوار كبير ومعاناة. توفاه الله. ثم انفصلت عن زوجها بعد خيانته المتعددة لها مع عاملات المنزل. فلم تعد تطيق له عشرة. أو جوار فتركته، وتركت كل شيء وبعدت.

تستشعر دينا أن دكتور إيهاب يستريح للحديث معها. لكنها مغلقة القلب تماما. إذ لم يعد يطربها حكايات الغرام، وهدير أمواج المشاعر. بعدما غادرت مرسى مطروح، وأتت هنا. ولم يعد يغريها أية حواديت. ما زالت بعض من بقاياها معلقة على جدار ذكريات أفئدة العشاق. فقد عاشت قصة حب فاشلة مع زوجها جعلتها تكفر بكل قصص الحب، وشيء فشيء ما قد بدا أنه كان شريان حياة بالأمس القريب، بات يغط في سبات الموتى الآن.

وكأن كل تلك المشاعر المرهفة قد واراها الثرى خاصة حين دفنت ابنهم الوحيد، فاليوم أغلقت أبواب القلب، وغلقت كل النوافذ لتتمكن من مواصلة الرحلة. أما ما كان يعينها أحيانا على تكملة المسير. هو ذاك البعد الإنساني والذي تركن إليه فرارا من لهيب الأيام.

منزل رضوى... مساءً...

رضوى: مساء الخير نهاد.

نهاد: هاي مامي.

رضوى: أهلا نهاد.

نهاد: كل سنة وحضرتك طيبة.

ضوي: وانت بخير نهاد.

نهاد: مع السلامة مامي.

رضوى: مع السلامة.

***

(2)

وكأن ما عاد يجمع رضوى وابنتها سوى الاتصال للتهنئة بالأعياد ... رغم تواجدها في نفس الكمباوند معها هي وأخيها.

بعدما اشترت لهما شقتان متجاورتان. من بعد وفاة أبيهم من مكافأة نهاية خدمة ومعاش أبيهم ومعاشها. فهي حين أنجبت الولد والبنت أدركت المعني الحقيقي لأمومتها وكيف أن الأم يمكن أن تتلاشي حبا وتنسي نفسها فيهم! وتلك هي الإنسانية التي ما عرفت غيرها لكن هل تلك الإنسانية قد وافتها هي الأخرى حقها؟!

ترد رضوى علي نفسها... لا أظن!

صباحا.

في حديقة الكمباوند تجتمع الصحبة للتحضير لشهر رمضان. ووضع جدول أعمالهم في الخير، وزيارة دور الأيتام. ودار المسنين، ومستشفيات الأطفال، وما إلى ذلك من أعمال الخير معتمدين علي دينا في وضع البروغرام كاملا.

ثم يتولى الدكتور إيهاب التحضير لسهرات الحسين، ومزارات القاهرة القديمة في رحاب المتصوفين الذين يعشق تواشيحهم أما سالي فتضع لهم مع رفقي مدرس الموسيقى جارها القديم. وثاني من أتى معها إلى هنا. وهاهم يكتبون قائمة الطعام والمشروبات التي عليهم

تجهيزها إلى جانب مواعيد محددة مرة كل أسبوع ليلتقوا بمن يتواجد من أولادهم أو عائلاتهم من أجل المحافظة على صلة الأرحام.

ينظر رفقي لسالي وكأنه يسائلها أتعتقدين أنهم يستحقون؟! وبالطبع يقصد إخوتها التي ضحت بمستقبلها وبحلمها في أن تصبح أم من أجل رعايتهم بعد وفاة أمها وأبيها في حادث، رافضة الزواج، وبعدما تعلموا وكبروا وتخرجوا من الجامعة وتزوجوا، كيف أنها هي التي استشعرت منهم أنها أصبحت عبئ ثقيل عليهم، وتأكدت بتصرفاتهم من شعورها، ففضلت البعاد وهم لم يمانعوا. ولم يمنعوا أنفسهم من الاستيلاء على معظم حقوقها.

أما رفقي فلم يختلف عنها كثير من بعد انفصاله عن زوجته التي كثيرا ما شقت عليه، وأجهدته بأنها صاحبة الفضل بالصرف على متطلبات الأولاد الذين أفسدتهم ببذخها واستهتارها. فصاروا مثلها لا يحترمون أي شيء بالحياة حتى أبوهم. ففضل البعاد. بعد أن عاد من أعارته التي كان يعمل بها مدرس للموسيقى بدولة عربية. ليشتري تلك الشقة الصغيرة. تنتهي السهرة على بعض من وجع. وكثير من أمل. في أن تظل صحبتهم الطيبة بخير. تلك الصحبة التي ما سمحت للأيام أن تكسرهم. وما سمحت لأحدهم أن ينزوي.

***

مواطن درجة ثانية

(1)

الزمان 1952...

المكان: حي الزمالك...

فيلا أنيقة في ضاحية هادئة. تلفها حديقة كبيرة مثمرة زروعها. وتلفك هي بشيء من سحر الأساطير النائمة في حضن زمن طيب يشدك هوائها العليل، ويظلك نخيلها، وكأنك تتنسم فيها رائحة من روائح الجنة.

على نيل القاهرة بحي الزمالك تقع هذه الفيلا. إذ كان ذاك الحي الهادئ الراقي آنذاك حلم من أحلام أثرياء هذا الزمن. للهروب من ضجيج وازدحام المدينة!

المحامي المخضرم عباس بك علي صاحب الفيلا، وهو الذي كان يحلم بهذه الفيلا الأنيقة. وقد أشرف على التصميمات الخاصة بها. والتي كان قد أهداه إياها صديقه مهندس المباني حسن عرفان، ولقد أتموا بنائها في صيف سنة 25 ميلادية. وقتما كان عاصم ولده طفل. لم يتعدى العشر سنوات الأولى من عمره.

عاصم بك القاضي المحترم والذي رزق بابنته شاهيناز من زوجته نوال هانم الابنة الوحيدة ل طلعت بك سري الذي كان يعمل بتجارة واسعة ما بين مصر والسودان. لكن ودونما مقدمات فقد الأب ثروته

في عملية تجارية كبيرة خاسرة، وأعلن إفلاسه. مما أفقده توازنه، وقدرته على مواصلة الحياة. فصار جليس على كرسي متحرك. يهذي طوال الوقت.

ترافقه ممرضة قائمة علي خدمته الطبية. وخادمه الطيب الذي رفض أن يفارقه. أما ابنته نوال فقد فقدت الأمان على أثر ما حدث لوالدها. ومرت بظروف نفسية صعبة لولا عناية الله بها حين وضع في طريقها هذا الرجل الخلوق عاصم بك والذي كان والده هو محامي والدها. ليصير زوج حنون، وسند تستند عليه من غدر الزمن الذي صارت تخشى منه. ويد حنونة تطبطب عليها من قسوة الأيام.

وهكذا ظلت الحياة هادئة إلى حد ما بين الزوجين. تظللها سعادة وهناء مجيء طفلتهم الجميلة. التي تشبه والدتها في لون عينيها العسلي. وشعرها البنى، وبشرتها الخمرية. حاملة جيناتهم بهدوء أبيها. ورقة أمها. فلم تكن شاهيناز طفلة مزعجة على الأطلاق، وكلما ابتسمت ضحكت الدنيا بأسرها في وجه والديها. اللذان يعتبران أن أسمى رسالة إنسانية لوجودهم بالحياة. هي رسالتهم من أجل أسعاد وراحة ابنتهم الطفلة الصغيرة المدللة.

وتمضي الأيام.

بوفاة والد نوال بدت الأحزان تتدفق مرة أخرى. ليشدها ألم الفراق من حضن ابنتها، وزوجها. لتمر عليها الأيام ثقال. زاهدة في كل شيء. كل هذا وزوجها الخلوق يواسيها، ويطيب خاطرها ويهدئ من روعها. لأنه يعلم مدى ارتباطها بوالدها. خاصة بعدما كرس حياته كلها لها بعد وفاة أمها وهي طفلة صغيرة رافض الزواج.

تمر الشهور حتى خرجت نوال من حالتها بعدما مرضت ابنتها شاهيناز. لتفيق وتتشبث بالأمل، وبالحياة. تمسكت بالحياة للآن بها ما يستحق أن تحيا لأجلهم. عاصم وشاهي كما كانت تحب أن تنادى صغيرتها شاهيناز.

تبدأ نوال مرحلة جديدة من حياتها، وهي أكثر قدرة على العطاء، والوقوف على أقدام ثابتة من أجل زوجها وابنتها مؤمنة بقضاء الله وقدره. تعيش شاهي سعيدة كما كانت أمها في طفولتها لتحيا بين والديها الحياة المرفهة الخالية من العناء.

***

(2)

صيف 56...

الإجازة الأسبوعية.

عاصم يتناول الشاي مع نوال في حديقة فيلتهم الأنيقة وصباح صفيي مشمس بنسمات هادئة يلفح وجوههم بطيف من حنين دائم لهذه الجلسة الهنية بهناوة اللحظات. التي تجمعهم. ولا يكدر صفوها سوى ذاك الشعور المتأرجح على عتبات ذكرياته.

يلقى بنظرة حانية على شاهي، وهي تلعب حولهم بالحديقة وحيده! يتذكر طفولته، وهو يلعب وحيد مثلها فيوجعه حالها متذكر تأثره الشديد حينها، والذي لم يكن مستوعب في البدايات ما سره؟

إذ كان صغر عمره حينها يجعله لا يستطيع تفسير الكثير. وحتى بعدما كبر لم يقدر أن يبوح بشيء لوالديه. نظرا لطبيعة شخصيته المنطوية والكتومة.

لذا ظل طوال طفولته وصباه. يكره هذا الشعور بالوحدة. ليظل هذا التمني مصاحب لأيامه. بأن يكون له أخ أو أخت يشاركوه اللعب والصداقة. أو ان يتقاسم معهم الحياة. ملاصق له كظله. ولكن تلك كانت مشيئة الأقدار! ومما ذاد من حالة الشجن المخبئ بين حنايا الروح وأطال بقائها حتى هذا العمر. تلك الفترة الأخيرة التي فقد فيها أمه وأبيه في سنتين متتاليين.

وها هو قد بلغ من العمر أواخر الثلاثينيات. ليتأجج شعوره بالاحتياج لابن يكون له نعم السند وكذلك يصير سند لأمه، وأخته علي مر الأيام.

ينظر إلى نوال بكل الحب والتمني قائلا بصوت ودود: نوال حبيبتي؛ آن الأوان يكون لشاهي بنتنا أخت أو أخ يلعب معاها.

نوال تحتويه بنظرة أكثر محبة، وحنان وتقول: أكيد يا حبيبي. وأنا فعلا كنت بفكر في الموضوع ده.

عاصم: بيتهيألي ده وقت مناسب، وأكيد الفرق في العمر ها يكون بسيط. نبقى متفقين يا حبيبتي.

تبتسم نوال ثم يتجولا معا بالحديقة. تارة يلعبوا بالكرة مع شاهي، وتارة ينطلقوا بها في سباق للجري الخفيف قدر احتمال طفلتهم الصغيرة ذات الأربع سنوات لينتهي اليوم جميل كما بدأ.

وكمعظم أيامهم منذ التقيا يستشعران شيء ما. فهل ستستمر الحياة بهم، وبأيامهم هادئة. حتى وأن كان يشوبها بعض من رتابة وشيء من قلق على ابنتهم ربما يجول بخاطرهم رغم عنهم دائما! لكن على الرغم من بعض رتابة ربما كانت تزور هدوء أيامهم على فترات متباعدة ما بين الحين والحين. فهم أنفسهم سعداء بحياتهم تلك الخالية من

زحام الأماكن وصخب المعارف والأقارب والأصدقاء. وكأن شاهي سيكتب عليها أن تظل في تلك الحضانة الأسرية المحافظة عليها لأبعد الحدود. حفاظا على حياتها من التلوث البشرى الذي ظل يؤرق حياة عاصم ومجرد تواجدها مستقبلا خارج هذه الحضانة سيعرض حياتها لخطر محقق أسمه عدوى تفاوت طبيعة وأخلاقيات البشر!

هم يريدونها ملائكية كما هي لكن هل الحياة بكل ما فيها من تناقضات ستسير بالجميع علي حسب كتالوج أمنياتهم. ومتى أعطت الحياة لكل إنسان ما تمنى؟!

خريف 57...

الرابعة عصرا.

يدق جرس الفيلا بعد عودة عاصم من عمله بالمحكمة بقليل. وتناوله الغذاء مع زوجته، وابنته. ليفاجئ بخادم فيلته يخبره أن الحاج نعيم زوج عمته. بانتظاره في الصالون بصوت مندهش لا تحمل نبراته أي ترحاب من المفترض أنه موجود بالفطرة ما بين الأقارب!

يأمر عاصم بك الخادم أن يقدم له واجب الضيافة. وبصوت أجش يطلب من الخادم أن يخبره بأنه قادم إليه بعد قليل.

***

(3)

في الصالون الأنيق تختلس عيون الحاج نعيم النظر هنا، وهناك. حتى كادت عيناه أن تخرج من مكانها. حسرة على حاله، وحقد عليهم. وكأنها تريد أن تنقض على كل ركن يشي برغد ونعيم الحياة الهادئة ولا تتركه. قبل أن تختطفها منهم.

وكأن لسان حاله يقول: أنا أولى بهذا النعيم منهم. وكأنهم هم الذين اختطفوه عنوة من فم الحروف التي يحملها اسمه؛ والذي لم يكن أبدا على مسمى!

يسترجع ذكريات كان قد مضى عليها ما يقارب على الأربعين عام. حين كان يصطحب زوجته لزيارة أبيها هنا في البيت الكبير. ورغم أن أشياء كثيرة مضت لحالها. إلا أن سواد قلبه لم يمضي بعد. فهو ما زال متبجح بغطرسته، والأدهى مواقفه المؤلمة. التي أسدلت عليها عائلة عاصم ستائر النسيان. حفاظ على صلة الأرحام!

لكن زيجته الفاشلة من ابنتهم ما زالت باقية كحائط سد، وصد. لأي شكل من أشكال الود العائلي بينهم وحتى هذه اللحظة التي يقف فيها نعيم في صالون العائلة يقطع عليه عاصم حبل سواد أفكار قلبه المريض!

عاصم في هدوء شديد: أهلا يا حاج نعيم.

الحاج نعيم في استكانة الرجل الأفاق الوصولي يقول: أهلا وسهلا يا عاصم يا بني؛ أهلا يا ريحة الحبايب.

عاصم في صرامة وشموخ القاضي يقول: اتفضل.

الحاج نعيم في خبث: يزيد فضلك يا عاصم بيه يا بني.

عاصم: وافر شكري، وامتناني أنك لسه فاكرنا. وأتمنى أن يكون الخير هو سر الزيارة الكريمة يا حاج نعيم.

الحاج نعيم مبتسما: كتر خيرك يا عاصم يا بني. عشمي فيك كبير. قصرت على السكة. الواحد كبر يا عاصم يا بني وما عدش عنده قلب للمناهدة والا صحة.

عاصم ينظر إليه باستغراب لا يخلو من دماثة خلق يقول: ربنا ما يجيب مناهدة خير. يا حاج نعيم.

الحاج نعيم: الحكاية باختصار نزاع على حتة أرض يا عاصم بيه يا بني. بيني وبين واحد في البلد. ودخلنا مع بعض في قضايا، ومحاكم. لكن أنا فكرت فيك يا عاصم يا بني. تتدخل في الموضوع. هنا أنتفض عاصم وأراد أن يستوقف استرساله في هذا الهذي الذي يهذي به نعيم لحساسية وضعه كقاضي.

عاصم: يا حاج نعيم المفروض إنك عارف حساسية وضعي! وإني ما يصحش أتدخل في حاجة زي دي. منظورة أمام المحاكم!

الحاج نعيم متلعثما: ط. ط طبعا. طبعا يا عاصم يا بني. بس أنا كان غرضي يا عني. هنا تململ عاصم في جلسته على الفوتيه، وكأنه يخبر نعيم بحساسية مفرطة. انتهاء وقت الزيارة. لكنه في نبرة محترمة عاود الحديث قبلما ينهي الزيارة.

عاصم: أنا في رأيي. أنكم تنهوا المشكلة ودي. يعني تحاولوا تتوصلوا لحل يرضى جميع الأطراف. وأنا من جهتي ها تواصل مع العمدة للتدخل بالحل. اللي ها يرضى الجميع بإذن الله. حفاظ على الجيرة، والود. والا إيه يا حاج.

الحاج نعيم في استكانة المضطر: أيوه. أيوه طبعا. كده تمام. كتر خيرك يا عاصم يا بني. يا ريحة الحبايب. ده ها يكون حل كويس. ربنا يسهل، وتتحل.

عاصم: ربنا المستعان.

يخرج الحاج نعيم من الفيلا. معاود لقريته، ويترك عاصم وسط ذكرياته. ليترحم على عمته الحنونة هنا. وكيف أنها صبرت على عشرة

هذا الرجل. والعيش معه في جفى وقسوة، وأنانية أيامه من أجل ابنها الوحيد، ودون ذنب منها سوى أن هذا طبعه. والذي لسوء حظها يغاير طبعها تماما.

ومما ذاد غيرته اشتعال وضع أخيها المحامي الكبير عباس بك والد عاصم حين افتتح مكتب للمحاماة منذ نزوحه للقاهرة. واستقرارهم بالفيلا بعد تخرجه إذ كان حينها في ريعان شبابه. لتتوالى نجاحاته. وتدوى معها سمعته الطيبة في القرية بين أهاليها. مع ازدياد الاحترام لشخصه. حتى حصل على البكوية. فازدادت محبة أهل قريته له، ولعائلته. في قريتهم الصغيرة الناعسة في حضن الهدوء على بحيرة قارون. وكيف أنه ظل ينغص على هنا حياتها وهي لا تشتكي منه أبدا. في البدايات كان حالها كحال بنات الأصول. حتى بدا عليها المرض، والحزن.

ظلت حياتها تسير في تكتم شديد من ناحيتها. ولم يعلم أبيها. أو أخيها شيء من التفاصيل سوى ما كانا يلمحانه في عينيها من حزن دفين. فيسألوها. فتخبرهم أنه لا شيء على الإطلاق. ثم تحاكيهم عنه بعكس حقيقته تماما! حتى بدت في أخر أيامها وقبل وفاتها بقليل. وكأنها غصن مائل كان واقف بدلال يوما ما على شجرة وارفة الظلال. لكنه ظل يذبل شيء فشيء. ولم يتبقى منه سوى ورقة واحدة يافعة.

كانت هذه الورقة هي ابنها الوحيد خالد الذي تخرج من كلية العلوم وقتها. وقرر السفر لإنجلترا في منحة علمية. ثم استقر مع طفله الصغير بغربته من حينها. وهكذا ابتعد خالد بعيد جدا عن قسوة وغلظة طبع والده. الذي لن يتغير. ابتعد كذلك عن علاقته بعاصم ابن خاله. لتصير العلاقة مع الأيام علاقة شبه هامشية. لكنها غير منقطعة. فكليهما كان يحافظ على صلة الأرحام.

وبالرغم من بقاء العلاقة. إلا أن ما يؤلم عاصم انه كان يتمنى أن يصير هو وخالد أخوة، وأصدقاء لا يفترقان لكن هذا لم يحدث. كان قد عم المساء، وألقى الليل بستائره الناعمة. ليفيق عاصم من ذكرياته. على صوت موسيقى كلاسيكية ناعمة. يفضلها هو ونوال.

فأدرك أنها قادمة إليه. فتماسك ليخرج نفسه من شجن الذكريات! تأتيه؛ وكأنها مثقلة الخطى. ثقيلة الرأس. تشبه إلى حد كبير امرأة في أولى بدايات حملها. ثم تربت على كتفيه بحنان؛ وهو ما زال ملقي بجسده، وروحه التي أوجعها ثقل الذكريات. على ذات الفوتيه بالصالون.

يقبل يديها. ثم يقف ليفتح النافذة، ويفتح معها نافذة القلب. ليتقابلا مع نسمة هواء ليلية هادئة دوما كانت على موعد معهما. تصطحبه هو وهي لعالمهم الخاص جدا.

نوال: الليمون يا حبيبي.

عاصم: مرسي يا حبيبتي. فعلا محتاجة جدا. جيتي في وقتك.

نوال مبتسمة في رقة: أنا دايما باجي في وقتي يا حبيبي. عاصم. وكأن نوال انتشلته من كابوس ثقيل. فظل يقبل يديها، ويأخذهما بين يديه.

ثم بحنان يأخذها لتجلس لجواره. ويتجاذبا أطراف حديث الود. ليرى في عينيها قلق يتوارى خلف ابتسامتها. ليسألها عاصم. أيه يا نوال. مالك. فيكي إيه؟!

نوال: لا أبدا. مجرد أحساس بالقلق.

عاصم: وليه بس القلق. ربنا كبير يا حبيبتي.

***

(4)

وقد بدت دموعها الناعسة في مقلتيها كنجوم تتلألأ على استحياء في بحور من فضة، وبصوت مترنح خفيض. يكاد أن يقتله فقدان الأمل تهمس: الحمد لله مؤمنة بقضاء الله، وواثقة في رحمته. لكن أنا حزينة يا عاصم إني تأخرت جدا على تحقيق حلمك.

عاصم. مداعبا: أي حلم فيهم حبيبتي أنا أحلامي كتير جدا. نوال: تنظر إليه كطفلة مدللة في غرامه.

تقول: حلم الطفل اللي بتتمناه يا حبيبي. شاهي خلصت مرحلة الروضة، ودخلت سنة أولى وكده الفرق ها يبقى فعلا كبير.

عاصم يطيب خاطرها بابتسامة رضى بدت على وجهه. طابع قبلة على جبينها. ويقول: بنبرة صوته المطمئن لها دائما. يااااااه يا نوال. قلقتيني أنا لمحت في عيونك حزن. رعبني عليك. ليه كده؟! الموضوع بسيط. أكيد ربنا ها يكرم يا حبيبتي. كل شيء بأوان. ما تقلقيش أبدا. وبعدين يا ستو أنا احنا ما عدى على كلامنا غير سنة. وسنة موش كتير. ربنا أكرمنا بشاهي. يعني ها تكون حاجة بسيطة بإذن الله. هي اللي مأخرة الحمل. ولو تحبي نروح لدكتور. ما عنديش مانع. بس من فضلك يا نوال. ما قدرش أشوف قلقك. ولا ألمح دمعة بعيونك الحلوين. من فضلك يا نوال. خليها علي الله، وما تقلقيش أبدا.

ثم يصطحبها ضاحكا. ويقول: تعالي. تعالي نشوف شاهي عملت إيه في دادة نجية. نامت والا هي إيلي نيمت نجية هههههه. ربنا يسعدنا بيها. ويخليهلنا يا حبيبتي.

نوال: يا رب.

ثم تضع رأسها على كتفه أثناء سيرها معه، وكأنها طفلة كل أمانها وسعادتها في هذه الدنيا هذا الكتف الحنون، والذي هو ملجئها، وملاذها من تقلبات الزمان حتى وصلا لحجرة شاهي. فقبلوها، وهي نائمة في مهدها السعيد تمر الأيام القليلة. والتي رتب فيها عاصم لزيارة الطبيب ليذهب هو ونوال بعدما تركا شاهي مع دادة نجية.

نجية سيدة في الستينيات من عمرها. وتعامل نوال، وعاصم، وابنتهم كأنهم أسرتها. أسرتها التي كم تمنتها ولم تشاء الأقدار! فهي وجدت نفسها يتيمة الأبوين. مقطوعة من شجرة منذ أتى بها والد عاصم من قريتهم. لتساعد زوجته. والدة عاصم. في تربيته وقتها.

كان عمرها يتأرجح في براءة ما بين مراحل الطفولة والصبي. إلى أن بدت عليها ملامح الأنوثة مع الأيام والسنوات الأولي لمجيئها لديهم. فتقدم لخطبتها بكر السائق الخاص ل عباس بك لتمر الأيام عليها سعيدة معه، ومعهم، وكأن الأيام ابتسمت في وجهها بعد طول عبوس!

وأثناء الترتيب للزواج يتوفي بكر بمرض غير معروف. وقتها لتغلق نجية باب الزواج نهائيا، ولا تفتحه أبدا. رغم جمالها البكر، وكثرة من تقدموا إليها اعتقاد منها أنها. وش نحس. كما كانت تسمعها زوجة عمها منذ فتحت عيونها على الدنيا. لتجد نفسها يتيمة الأب، والأم وحيدة عند عمها الفقير، والذي تركها على عتبات حياة بيوتات الأسر الميسورة. كخادمة إلى أن رئف لحالها القدر. وألقى بها عند عباس بك لتطمئن إلى جوارهم مدى الحياة. يصل عاصم، ونوال لعيادة الطبيب. ليقوم بطلب بعض الأشعة، والتحاليل البسيطة. للاطمئنان والوقوف على الحالة.

يخرجان من عيادة الطبيب ليستقلا السيارة، ويتجولا في شوارع حي مصر الجديدة الهادئة، وكعادة عاصم الدائمة. معها في تلطيف أجواء الحياة. حيث اصطحبها إلى مطعم راقي في مصر الجديدة. تم افتتاحه منذ عدة أيام، وقد لاقى استحسانه حين سمع عنه من صديقه القاضي وبلدياته من الفيوم.

عمر الفيومي وقرر أن يفاجئ نوال لقضاء أمسية هادئة. تنسيها ما اعتراها من توتر الأيام السابقة، وأثناء زيارة الطبيب. يعودان للمنزل في التاسعة مساء ليطمئنا على شاهي ويخلدان للنوم.

تمر الأيام.

يقرر الطبيب أن نوال تحتاج إلى بعض الأدوية البسيطة مع العناية بنظام غذائي متكامل. بعدها ستكون مهيأة بإذن الله.

يناير 59...

السعادة تظلل الفيلا بقدوم شريف أخ لشاهي. ليكتمل ما كان ينقص عاصم، ونوال، وتكبر أسرتهم الصغيرة. لتمضي بهم الأيام على جناح المحبة، والهناء. ليكبر شريف، ويقتسم مع شاهي الحياة كما تمني والدهم، ووالدتهم.

***

(5)

ربيع 69...

شريف يلهو في براح مرح خفة ظل أيام طفولته، وشقاوة سنواته البريئة التي لم تتجاوز العشر سنوات. والتي قد لا تخلو متعة أوقاتها

من مشاكسات، ومداعبات مع من حوله، وبخاصة دادة نجية. أثناء اصطحابها له في حديقة الفيلا.

هذه المشاكسات التي تقلق راحة، وهدوء شاهي. خاصة وهي جالسة على الأريكة في البهو المطل على الحديقة تعيش كفراشة حالمة بين سطور حواديت الكاتب إحسان عبد القدوس. حالمة دائما. مندهشة أحيانا. لا تصدق أن من بين أبطال حكاياته من يحملون بقلوبهم كل هذا الحزن، أو هذا الكم الفظيع من الشر.

هذا الشر الذي لا تعرفه، ولم تلمحه يوما ما زائر لحياتهم الهادئة. فهي تبلغ من العمر سبعة عشر ربيع.

تعيش زهرة تنثر شذاها سعادة في حدائق قلب والديها، ولم ترى من الحياة سوى تلك العلاقات الطيبة، سواء ما بين أقرانها في المدرسة، أو أصدقائها في النادي. الذي قلما ما يذهبوا إليه. فمعظم خروجاتهم القليلة غالبا ما تكون عائلية جدا.لذا هي تكاد لا تعي ما خلف أسوار حديقة منزلهم من حكايات. تحمل بين جنباتها الخير والشر، والحزن، والفرح.

هي لا تعرف من وجوه الناس غير تلك التي تحمل الخير، ورقة لين القلوب. وهكذا هي شاهي لا ترى من الدنيا سوى خيرها. ولا ترى من البشر سوى ما جبلوا عليه من ذاك الخير. فتلك دنياها الحقيقية حتى الآن!

يمر اليوم عليهم. ويتناولان الغذاء في الحديقة مع والدتهم دون والدهم. وهو بالأمر العادي أحيانا كلما أستدعى الأمر سفره. لمباشرة بعض القضايا متنقل بين المحاكم المصرية.

عاصم يعود من الإسكندرية. ويصل لمنزله. يدخل حجرة مكتبه الموجودة بجانب حجرة المعيشة، والتي يعلم أن بها نوال تشاهد

التلفزيون بعد أن خلد أولادهم للنوم فيهديها كعادته سلام المساء قائلا بصوت مسموع: مساء الخير يا نوال. فتدرك أنه وصل، وتسرع لتقبله، وترد السلام.

نوال: مساء النور حبيبي. حمد الله على سلامتك.

عاصم: الله يسلم قلبك، وما يحرمني منك. أخباركم إيه طمنيني عليكم؟

نوال: كله على ما يرام. الحمد لله. ها حضرلك العشا بسرعة.

عاصم: بضحكة عالية مرتاحة البال يقول وهو يقبل يديها: ست الكل. يا ترى ها تعشيني إيه؟!

نوال: تضحك في دلال يغريه أن العشاء كان يستحق انتظاره طيلة اليوم دون طعام. وتقول. شركسية بالفراخ، وجلاش، وووووو.

ولا تستطيع أن تكمل من الضحك.

عاصم يذوب فيها وفي ضحكات من القلب. لأنه يعلم أنها تداعبه. فهو لا يتناول سوى بعض الأطعمة الخفيفة بعد يوم عمل طويل، ومشقة سفر عائد منها ليلا! لكن كل هذا التعب يتبخر في الهواء. ليضيع مع نسمات حالمة تلفح طلة وجهه الطيب. حين تزوره عيونها بابتسامة ودودة حالمة.

صباح عادي...

يتخلله راحة عاصم الأسبوعية من عمله بالمحكمة. لكنه لا يخلو من بعض تليفونات يتلقاها في المنزل. بعد تناوله الفطور. ثم يأخذ القهوة مع نوال في بهو المنزل.

دادة نجية. تدخل عليهم وهي حاملة تليفون المنزل، وممسكة بالسلك الطويل. بكل عناية.

نجية: تليفون لحضرتك يا سعادة البيه.

عاصم: شكرا يا نجية.

ألو.

عمدة قريتهم: أهلا عاصم باشا. ازي سيادتك.

عاصم: أهلا. أهلا. يا حضرة العمدة. ازي حالكم. وازي كل أهالينا في البلد. يا رب تكونوا جميعا بخير.

العمدة: كلنا بخير يا عاصم باشا. طول ما حضرتك بخير والله. بس هو في خبر مش والا بد. يؤسفني أبلغهولك!

عاصم: خير يا عمدة. يا ترى في إيه؟!

العمدة: البقاء لله في الحاج نعيم جوز عمتك.

عاصم: البقاء والدوام لله. لاحول والا قوة إلا بالله.

العمدة: احنا بس عايزين سيادتك تبلغ الدكتور خالد ابن عمة جنابك ان أبوه مات. وان عمه الوحيد اللي كان فاضل من عيلتهم. راجل كبير زي ما سيادتك فاهم، ومش ها يعرف لا هو. ولا ده يتصرف زي سيادتك.

عاصم: لا حول ولا قوة إلا بالله. البقاء والدوام لله. حاضر أنا ها بلغه حالا. بس يا رب الخطوط تجمع. وها كون عندكم النهار دع بمشيئة الله. نتمم إجراءات الدفن. لاحول والا قوة إلا بالله. متشكرين يا عمدة.

عاصم يغلق الهاتف ويحاول جاهدا الاتصال بالسنترال. كي يستطيع أن يتواصل مع ابن عمته خالد في إنجلترا.

وبالفعل يتلقى خالد المكالمة في ذهول!

وكأنه كان قد اطمئن لوجود والده بالقرية. ولم يخطر بباله أبدا أن الموت حق. حتى وان كان أبوه مع مرور السنوات قد بلغ من العمر أرذله. ما كان بحسبانه أنه سيموت في أي وقت. خاصة أنه وصل عمره للتسعين.

يصل عاصم لقريته، ويقوم بإجراءات دفن الحاج نعيم زوج عمته، وسط أهل القرية. ويؤجل تلقي العزاء. حتى يصل الدكتور خالد في خلال يومين. ثم يغادر القرية.

أثناء عودته لمنزله. يتذكر المكالمة التي حدثت بينه وبين خالد وخاصة بعد أن أستأذنه بدفن والده بدلا منه لأن اكرام الميت دفنه.

فوافق خالد. وهو في منتهي الحزن، والأسى على أن يقوم عاصم بكل إجراءات، ومراسم الدفن بدلا منه. على وعد بينهم أن يصل خالد إلى القاهرة. ثم يغادرا سويا للقرية. لترتيب أوضاع إجراءات الميراث مع السيدة التي كان تزوجها والده من سنوات بعيدة. من بعد وفاة والدته بشهور قليلة. وهي من ضمن أسباب انقطاعه عن زيارة والده طوال السنوات الماضية.

يتفهم عاصم، ويستشعر وضع خالد النفسي أثناء المكالمة التليفونية التي كانت بينهم. ويدرك مدى الأسى الشديد الذي تشعره في صوته خالد ومكالمة أخرى مع عاصم من بعد عودته لمنزله. ليطمئنه على دفن والده، ثم يغلق الهاتف. ليقف على أطراف أحزانه، وحيرته بأسى شديد.

ويتذكر في تلك اللحظة وفقط خطأه الفادح في حق والده لأنه لم يزوره طيلة خمسة عشر عام، وأن مكالماته كانت على فترات متباعدة. وكانت فاترة جدا، فيحزن أكثر، وأكثر ثم يلوم نفسه...

ولأول مرة يندم، ويبكي على فراق والده. لأنه لم ولن يستطيع أن يلقى عليه النظرة الأخيرة، ويودعه حتى مراسم دفنه ما حضرها. ليضع يديه على عينيه، ويستمر يجهش بالبكاء.

***

(6)

تقارب دقات الساعة العاشرة مساء. وقد خيم الليل في القاهرة ليخلد عاصم إلى نومه. بعد يوم طويل وحزين.

لندن...

بينما يظل خالد جالس علي درج سلم فيلته. القابعة بضاحية هادئة في العاصمة البريطانية يبكي بجوار الهاتف. بعد ان أغلق السماعة مع عاصم ليظل يبكي بكاء عزيز. عزيز. طوال الليل.

بكاء أقرب منه إلى النحيب. ويلف ذاك الحبل الأسود الطويل لسلك التليفون على يديه. حتى كاد أن يدميهما ندم، وأسف على أنهما ما احتضنا أبوه. في تلك اللحظات، وما سنداه بلحظات أخرى. ليتعكز عليهما في أخر أيامه! يلوم نفسه، ويلومها. ليتمتم بكلمات تنفرط حروفها مع دموعه حتى باتت كلماته أقرب إلى الهذيان!

يقول بصوت مسموع: أنا غلطان. سامحني يا رب. سامحني يابا.

وتلك هي الجملة التي استطاعت أذن إياد أن تلتقطها، وهو يخطو نحوه خطوات تحبو على باب قلب أبيه. لكنه لا يشعر به. يقترب منه ابنه مذعور، وجل. يحملق في وجهه. أنها المرة الأولى التي يراه فيها ضعيف هكذا.

يقترب أكثر، وأكثر في وجهه. ثم يفرك عينيه. ليتأكد أنه لا يحلم. فيدقق النظر مرة ثانية، وثالثة، وكأنه يريد أن يستفسر من كل تفصيلة حزن بدت في عينيه، وعلى ملامحه، وأيضا عن كل نبرة نحيب لا يفهم منها أي شيء. ليمر الوقت عليهم وخالد يهزأ بكلمات خلعت قلب إياد من مكانه رغم أنها المرة الأولى التي ينخلع فيها قلبه عليه. منذ أن أتى به طفل صغير لإنجلترا. لكن بالنهايات فهما ليس لهما سوى بعضهما بهذه الدنيا، وفي تلك الغربة قاسية الأيام. باردة الليالي.

يربت على كتفيه في حنية لم يلمسها خالد من زمن طويل. ثم يقترب من وجهه ملامس إياه، وهامس بصوت خفيض: بابا إيه. فيك إيه؟! مالك يا بابا. إيه حصل؟!

ثم يحتضنه. وكأنه جاء في الوقت المناسب جدا ليلملم ما تبقى من أبوه بعدما ضاع كثير جدا منه، وغرق هناك في قريته الصغيرة الناعسة في حضن الهدوء على بحيرة قارون!

ظل هكذا في حضن ابنه ينتحب.

بعد مرور ما يقارب الساعة.

إياد: بابا لو سمحت. ممكن نطلع فوق من فضلك.

خالد: يقوم مسنود على ابنه. يلفه الشجن، ويطويه السكوت. وكأنه طفل صغير يمسك بيد والده الحاج نعيم. ليظل هناك عند قريته الصغيرة. يسكن الذكريات، وكأنه يرى

نجاة ابنة عمه التي لم تكمل أعوامها الخامسة عشر بعد. ليجبره والده على الزواج بها. طامع في أرض، وطين. أخيه المريض. حتى ولو كان الثمن أن يذيد من الطين بلة فوق رأس ابنه الطالب الجامعي.

والذي ما زال يخطو أولى خطوات حلمه بالجامعة. ليظل حائر ما بين كونه طالب، وزوج لنجاة ابنة عمه. دون أخذ رأيه، ورأيها. وهكذا ظل مجرد كومبارس لمسرحية الحاج نعيم الهزلية. حتى أنه مرت عليه تلك السنة بالجامعة. لا يتذكر من نجاة سوى كلمات بسيطة. كانت تتمرغ حروفها في رقة وطيبة ودماثة خلقها.

لا يتذكر منها غير كلمتي حاضر، ونعم أثناء تواجده معها. ثم في أجازته الصيفية الوحيدة التي جمعتهم لأيام ولياليي طويلة إلى حد ما! أذاقهم جميعا الحاج نعيم المر. وكأنهم عبيد لأوامره، ونواهيه. إلى أن رزق وهو على أبواب انتهاء عامه الثاني بالجامعة بإياد. لتضعه نجاة أمانة بين يديه وترحل!

ثم يترك إياد لجدته. فتقوم على رعايته لمدة ثلاث سنوات كاملة. حتى أنهي خالد دراسته. ثم تأبى هي الأخرى البقاء. وكأنها انتظرت تلك المحطة لاستقرار حياة ابنها العملية وتخرجه من الجامعة بتفوق لتخرج هي إلى رحابة السماء. وتلحق بنجاة وترحل.

ولأن الملائكة لا يمكثون طويلا على عتبات أرض الحاج نعيم رحلوا في هدوء. لكن على ما يبدو أنه كان مجرد هدوء على السطح. من تحته نار لا يهدأ لها رماد في قلب خالد كلما آتاه هوى الذكرى فيذيدها اشتعال. لتباعد بينه وبين والده أكثر، وأكثر كل تلك السنوات!

ينتفض خالد من غفوة ذكرياته باكر. ثم يتجه إلى جامعة كامبردج ليمر أمام عينيه شريط طويل من الذكريات القاسية بجفائها، والقوية بدفعه إلى الأمام.

ليتقدم صفوف زملائه دوما رغم كل التحديات، والمعوقات فهو هنا بأول سلم للنجاح. بحصوله على الماجيستير. ثم تتوالى نجاحاته. بحصوله على الدكتوراه، والعمل بجامعة كامبريدج. وهكذا سارت حياته من نجاح إلى نجاحات منذ تخرجه الأول على دفعته في كلية العلوم بمصر. ثم حصوله على المنحة الدراسية وسفره لإنجلترا.

كل هذا وابنه بين يديه يتنقل من حضنه إلى رياض الأطفال. ليتركه بالمدرسة الداخلية. حتى انتهاء الدراسة الثانوية ليلتقيا بالإجازات. كان يظن انه تاركه ليشتد عوده. لكنه ما تخيل أن هذا العود كان يشتد بجفاء الغربة، وبرودة الليالي مع وحدته المفروضة عليه بالمدرسة الداخلية. لكنهما كانا مضطرين أن يكملا تلك الحياة الرتيبة، والتي سارت على المسطرة بعدما خطط لها خالد بالورقة والقلم.

ينتهي خالد من إجراءات أجازته ثم يعود لمنزله. ليجد إياد في انتظاره. يريد أن يعلم ماذا حدث ليخبره بالقصة كاملة دونما حذف أو نقصان.

إياد: يااااه. كل السنين دي وأنا كل ما أسألك. ما بننزلش مصر ليه؟ تقولي ها ننزل لمين؟!

ينظر خالد إليه في تأثر شديد، وإحساس مضاف بالحزن والتقصير في حق ابنه. لأنه حرمه حرية الاختيار في أن يرى جده وعائلته. وأن يحبهم أو ينتمي إليهم أو لا.

إياد: ممكن أنزل معاك مصر.

خالد: في نبرة حنان تئن بالاحتياج لولده. يا ريت يا بني. دقات هاتف المنزل، وقد قاربت على الرابعة مساء في لندن.

عاصم: مساء الخير يا خالد. يا رب تكون نمت كويس.

خالد: الحمد لله يا عاصم. متشكر جدا. ها نعمل إيه مفيش حاجة بإدينا.

عاصم: الحمد لله. حال الدنيا يا خالد. شد حيلك.

خالد: رتبت إجراءات الإجازة. وبرتب للسفر للقاهرة في خلال يومين ها كون عندكم، وإياد معايا.

عاصم: ده خبر كويس. عشان ابنك يعرف أهله يا خالد. برافو عليك. توصلوا بالسلامة بإذن الله.

خالد: أشوف وشك بخير.

عاصم: مع السلامة.

***

(7)

ينتصف ليل القاهرة. ليغلق عيون غفت لتتقاسم حلو، ومر الأحلام. بعد أن نامت قلوب البشر في مهد الأمنيات لتصحو على ما يحلو للأيام أن تفعله بهم.

بعد مرور اليومين... القاهرة...

عاصم يغط في نوم عميق. لكن صوت الهاتف الموضوع على الكيمود المجاور لسريره بحجرة نومه. يؤرقه، ويجعله يتقلب يمين، ويسار إلى أن ينتبه. ثم يلتقط السماعة للاطمئنان على سلامة خالد وإياد. وها هي الساعة قاربت على السابعة صباحا. ليأتيه صوت خالد عبر الهاتف.

خالد: صباح الخير. أسف يا عاصم علي القلق. بطمنك اننا وصلنا حالا الفندق.

عاصم: صباح الخير يا خالد. حمد الله على سلامتكم.

خالد: الله يسلمك. مناسب نتقابل الساعة 5 بإذن الله.

عاصم: لا يا خالد في انتظاركم على الغدا بإذن الله.

خالد: أوكي اتفقنا.

ثم يغلق خالد هاتف حجرة الأوتيل وما زال منكسر. لكنه لا يستسلم لذلك الشعور.

ينادي على إياد ليشعر انه في صحبة ابنه،التى أفتقدها كثيرا .

وكأن أمان العالم بأسره يحتضنه .. يتجهان للوبي الأوتيل بعد تناولهم الفطور الأورينتال بمطعم الفندق يسير خالد مطبق على يدي ابنه بحنان، وكأن كليهما يضع كل سنوات العمر التي ضيعتها الغربة أمانة لدى الآخر.

وهاهما. يطلان على نيل القاهرة من تراس الفندق. وما زال خالد يطبق على ما تبقى منه من إنسانية. ليتشبع بكثير من الود، والرحمة. ثم يغرسهما في قلب ابنه. . عله يستطيع أن يعود به قريبا منه كما كان فى طفولته .. أو أنه يكون قد ارتوى بالنظر لنيل القاهرة، ويعوض بعض من عطش السنين، وجفا الأيام. وعله هو الآخر يستطيع أن يهبه ما حرمه أبوه منه.

في فيلا عاصم.

نوال تستعد لاستقبال خالد، وابنه على مأدبة الغذاء الفاخرة، وتشرف على الانتهاء منها. ثم تتجه لحجرة شاهي لتخبرها باقتراب

موعد وصول أقاربهم. شاهي. تسأل أمها نوال ببراءة: مامي؛ هو إياد ابن أنكل خالد أكبر مني ولا أنا الأكبر؟

نوال: الفرق بينكم بسيط يا حبيبتي.

شاهي: يعني المفروض هو في الجامعة.

نوال: أعتقد كده. بسرعة يا شاهي. وحياتي. مش ها نضيع الوقت في الكلام عن إياد. خلصي لبس. انت وشريف أخوك، وانزلوا تحت. أكيد هما على وصول.

تنزل نوال لحجرة المعيشة. لتناول فنجان قهوة. يلفت انتباهها صدى كلمات شاهي عن إياد. فيخطفها القلق للحظة. ثم يعود بها على طاولة انتظار ضيوفها، والتقاط الأنفاس.

عاصم وقد عاد من عمله قبل موعده المعتاد. ليكون بانتظار من كان بمثابة أخيه الذي كان يهنأ بالأيام معه.

عاصم محدثا نوال: ميعاد قهوتك اتأخر النهار ده يا نوال. تعبناك معانا يا حبيبتي. ربنا ما يحرمني منك.

نوال: مرسي يا حبيبي. يا رب يعجبهم الغدا.

عاصم: على فكرة هو دايما مشتاق للأكل المصري.

نوال: أكيد.

نجية تدخل عليهم حجرة المعيشة لتخبرهم بوصول الضيوف. وسط البهو الكبير تتطاير فرحة عاصم. رغم الحزن، وحالة الوفاة التي أتى من أجلها خالد لمصر بعد طول غياب. لكن هذا لا يمنع التعبير عن الحب، والاحتياج لمن تبقوا لنا بشجرة الحياة.

يحتضن عاصم. خالد، وإياد في ترحاب وود شديدين. شاهي. تسترق السمع، وتختلس النظر. عبر الدرج البعيد المطل على بهو الفيلا، والصالون. أما قلبها البريء لا تدري ما الذي يجعله يطير الآن. ويغرد بهمس باسمه. ثم يصرح ويبوح. عما الذي كان يفرحها. حين كانت تسمع عنه الحكايات من والدها؟! ولما كان يزورها في أحلامها خلسة بعيدا عن الجميع؟!

وها هو قلبها يغافلها، ويكاد أن يترك صدرها، ويرحل عند عتبات قصص، وحكايات أبطال وبطلات كاتبها المفضل إحسان عبد القدوس. تلمحها أمها في نظرة خاطفة غير مقصودة، وكأن قلب الأم قد أرسل اشاراته الحمراء بالخطر القادم، وإنه لا بد من نقطة نظام.

***

(8)

بينما تجتمع العائلة في الصالون بعد تناولهم الغذاء. ليتناولوا الشاي وتبادل حديث الذكريات بين عاصم وخالد. يتراءى من خلاله ثمة شعور بالحنين لذاك الدفء العائلي المفتقد! عاصم. يا ترى يا خالد مابتفكرش تستقر في مصر.

خالد. ينظر إلى إياد قبل أن يرد على عاصم مؤكد على عدم ورود الفكرة. ويقول: لا إطلاقا أنا، وإياد رتبنا حياتنا من زمان على الاستقرار بإنجلترا. وكمان يا عاصم مستقبل إياد، وجامعته أفضل هناك. وحياتنا اصبحت كلها هناك. فات الوقت على التفكير بالرجوع.

عاصم: عموما على راحتكم. وانت أدرى بظروفك. لكن أكيد احنا بنفتقدكم جدا، ويمكن شعوري بجو العيلة الكبيرة اللي محتاجينه احنا

الإثنين، وكمان ولادنا. هو اللي دفعني للسؤال. خالد. نفس الشعور حبيبي عاصم. لكن ذي ما بيقول أهالينا. ما باليد حيلة.

عاصم: بإذن الله كله خير. المهم ها ننزل البلد نرتب كل الأمور المتعلقة بيك هناك. وكل شيء بإذن الله ها يكون على ما يرام.

خالد: إن شاء الله يا عاصم. ربنا يخليك ليا. أنا مش عارف من غيرك كنت ها عمل إيه. بعد كل سنين الغربة دي. كان زماني تايه لوحدي.

عاصم: ربنا يخلينا لبعض. وده بالضبط اللي كنت أقصده. عايزين ولادنا يكونوا امتداد لينا. موش عايزين نتوه من بعض يا خالد.

خالد: عندك حق.

عاصم مبتسما، ومحدث إياد: إيه يا إياد رأيك في مصر؟ وأكل طنط نوال المصري. أتمنى أنك تكون سعيد، وانت معانا.

إياد في جملة مصرية شديدة الأدب: أشكركم جدا يا عمي. مصر بلد جميلة. رغم إني ما شفتش غير النيل.

فضحك عاصم، وخالد، ونوال في آن واحد.

ثم قالت نوال: النيل يا إياد عنوان جمال مصر الحقيقي.

عاصم: صحيح.

خالد: وطبعا يا إياد زي ما علمتك. فعلا الجواب بيبان من عنوانه.

ثم ينظر مبتسما إلى شاهي وكأنه سيربط بينها، وبين إعجاب إياد بمصر، والنيل.

نوال بهدوئها وحسن استقبالها للضيوف أضفت جو من الود الجميل، والذي ذكر خالد بأمه، وحنانها المفتقد. أما شاهي فكانت

نظرة واحدة من إياد كفيلة بأن تلقى بسهام كيوبيد في قلبها البكر الصبوح ليتركها غريقة في بحر هواه. بلا مجداف نجاه. مختطف إياها من حضن ابويها اللذين ظنا أن هذا الارتباط سيكون امتداد لبقاء الترابط العائلي في أروع صوره. وفي لحظة مسروقة من عمر أيام شاهي وكأنها خلقت لتحيا وتموت بتلك النظرة الخاطفة التي جعلتها في ذات اللحظة بطلة لروايات كاتبها المفضل احسان عبد القدوس.

بعد مرور السنوات... لندن...

شاهي. تسمع صوته يناديها. بعصبيته المعتادة وهي ما زالت واقفة عند عتبة ذكريات النظرة الخاطفة منذ أول لقاء بالقاهرة تنظر بالمرآه. تتلمس وجهها الذي ما عادت تعرفه. بعدما رسمت قسوة غربتها معه ، ومع خطوط الزمن أحزان حطت على ملامحها. ورفضت الرحيل.

أما صمتها الذي أسكنته بوابات الصبر على المقادير. فأحيانا يفر لبعض الوقت يحاكى دموع عينيها فتبوح بشقاء تلك البريئة الحالمة. منذ أن تزوجت إياد لتبقى أكثر من خمسة عشر عام. تتكتم ألامها في أنين لا يسمع منه شيء، ولا يشعر به أحد. حتى أقرب الناس إليها امها، وأخيها البعيدين عنها بالقاهرة. لا يعلمون عن أمر شقائها معه شيء. فقد اشفقت عليهم من اجترار الأحزان. خاصة بعد وفاة أبيها.

فتجدها منذ أن عاشت معه كالطيور المهاجرة، وهي تحاول ان تتأقلم وسط هذا الغيم الكثيف بالعاصمة الضبابية. تحاول أيضا ان تخرج من ظلمة كابوسه الطويل المعقد بإرث التفاصيل. لكن هيهات.

إياد. يجلس متقوقع بمكانه بالأيام. بعد ان اعتزل العمل والحياة باكر جدا، ولا تفارق زجاجة الخمر يديه. منذ الحادث الذي تسبب

فيه بسبب الخمر أيضا ، والذى راح ضحيته والده، ونجت منه شاهي بأعجوبة. بعد ان فقدت جنينها. وفقدت بفقدانه الأمل نهائيا في ان تصبح يوم ما أم. بعد إجراء عملية جراحية دقيقة.

يتجول متكئا على عكازه في توتر لا يحتمل داخل الفيلا. القابعة في هدوء في إحدى ضواحي لندن.

إياد: بنادي عليك. ما بتردش ليه؟!

***

(9)

شاهي. تنظر إلى إياد نظرة المستسلمة للقسمة والنصيب. وبيد عليا تغترف دوما من قلب ملئه الخير. كي تستطيع أن تكمل المسير مع من دهستها الحياة تحت قدميه. تمسك به، وتسير معه إلى التراس ودونما كلام. يهدأ إلى حد كبير. ولما لا؟! فشاهي لم تزل إلى جواره، والكأس في يديه! ولما لا وشاهى قد غفرت كل نزواته التى عذبها بها منذ أن آتت إليه .

إياد: وكعادته معها في رمى التهم عليها. مستغل براءتها. كي تعيش العمر كله إلى جواره في عمى بصري. ظنا منه انها لا ترى أخطائه. وكأن كل ذنبها معه هو أن حظها العاثر أوقعها مع من لا يعرف الإنصاف. وهي ما زالت بالفعل المهذبة الردود .. بريئة الحواديت.

إياد: انت موش ها تبطلي تستفزيني.

شاهي: بنظرة أرهقتها الحيرة. وصوت أنهكته المعاناة سنوات طوال. والله أنا ما بقيت عارفة أرضيك ازاي!

إياد. في سخرية واستهزاء يشيح بيده في وجهها.

بلا ترضيني. بلا ارف!

تجلس إلى جواره في مقعد خالي من وجود الآلفة بعد ان هجرت الروح. صامتة. وكأنها هناك تطيل النظر لتلك البحيرة البعيدة المطلة على المدينة التي لا تشبهها في شيء. لترى نفسها على الجانب الآخر بعيد. بعيد. كخيال لطيف شريد وصورة حلوة تتهادى أمام عينيها.

وها هو إياد الوسيم الرقيق خمري البشرة. ذو العيون الغارقة بعسل الأيام التي كم تمنت أن تعيش بين أحضانها معه. لكن الأقدار خطفتهم سريعا على مرافئ الحزن. منذ كارثة الحادثة المفجعة حتى جفت ينابيع شهد العسل. ولم يتبقى سوى وخز هذا الألم.

كلما طار القلب هنا وهناك كفراشة وسط حدائق الذكريات. وتظل هي حتى تلك اللحظة منتظرة أن يعود إياد المتحضر إنسانيا، وفكريا. والذي عرفته مليا عندما تبادلا الحديث كثيرا بعدما غادر القاهرة مع والده. ثم وعده لها بتبادل الرسائل، والمكالمات. فظلا قرابة العام يعيشان في حلم جميل. باركه الأهل. وأتموه بالزواج.

إياد: شاهي. انت روحتي فين تاني.

شاهي: نعم يا إياد.

إياد: بطلي تسرحي وانت جنبي.

شاهي: حاضر.

إياد: بفكر أرجع أدرس للطلاب الأدب الإنجليزي تاني في الجامعة.

شاهي: الله يا إياد. ده خبر حلو جدا يا حبيبي.

غير مصدقة أن الله قد استجاب دعائها، وسيعود إياد لعمله بعد كل تلك السنوات من المعاناة، والتي أضاع فيها معظم ثروته وثروتها التي ورثتها بعد وفاة والدها على أثر أزمة قلبية مفاجئة بعدما أصاب قلبه علة المرض. بعد حادثة وفاة خالد ابن عمته وصديقه وأخيه وفقد ابنته لجنينها وحرمانها من الأمومة نهائيا.

لم يتحمل قلبه الرقيق كل تلك المصائب المتوالية مع ندمه الشديد أنه قد باعد ابنته عن حضن قلبه حين قبل غربتها وزواجها من إياد لتحقيق حلمه في الترابط العائلي.

إياد: تفتكري ها أقدر.

شاهي: أكيد بإذن الله.

إياد: ربنا يقدم اللي فيه الخير.

شاهي: تنظر للكأس الذي بيديه، والذي ما لبث أن يفرغه حتى يعاود ملئه ليشرب، ويشرب بشراهة غير عادية.

ونظرة من عينيها هو يفهمها. فيرد عليها بنظرة أخرى ساخرة. وكأنه يتأرجح مع بصيص من أمل في غد أفضل وأرحب ما بين اتزان اللحظة، وهذيان ما فات. ليقول: واحدة. واحدة كل شيء ها يكون كويس. أنا من فترة بفكر في القرار ده. وأخيرا اقتنعت.

شاهي: يا رب تتوفق، وكفاية السنين اللي ضاعت.

إياد: يستوقفها بكلمة جامدة كجمود مشاعره. خلاص. خلاص أنا عايز أنام بدري. حضري لي عشا خفيف.

شاهي: حاضر يا حبيبي.

شاهي تحادث ربها كعادتها وهي ممتنة بالحمد والشكر رغم كل ما حدث.

صباح جديد...

ربيع / 1985...

رغم قضائها ما يقارب ضعف عمرها هنا. في هذه الضاحية الضبابية إلا أنها لم تتكيف أبدا مع هذا المناخ، ودائما ما اعتراها شعور أن ذلك المكان كان سبب رئيسي في أن ترتدى كل أيامها ثياب أحزان رمادية. لكنها ترى هذا الصباح مختلف. مشرق الأمنيات. يحمل أحلام شمس يوم جديد لمن يتمسكون بالأمل مثلها. رغم العيش في عاصمة الضباب.

تحضر الفطور، وتبدو مشرقة وقد خلعت هذا الثوب الثقيل من المعاناة بكلماته عن عودته للحياة ليلة أمس. ثم تذهب لتوقظه من نومه كي يلحق بمواكب الحالمين بمستقبل أفضل. والذهاب للجامعة التي كان يعمل بها أستاذ مساعد لمادة الأدب الإنجليزي. لتجد ما لم تتوقعه أبدا.

***

(10)

بخطوات رقيقة كفراشة تحلق ما بين واقع ضنين، وحلم بخيل كانت تخطو بهمس إلى غرفة نومهما وبقلبها الصبوح الذي ما لبث أن يستيقظ من عتمة ليل طويل. ليستقبل بتفاؤل شمس يوم جديد. ظن انه سوف يكون مختلف. وبعيد عن وجع الذكريات المؤلمة.

تقترب منه. تضع يدها على شعره. تتلمسه بأنامل ما زالت عاشقة. وكأنها تعزف بحنين ظل يذوب، ويذوب، ولم يتذوق طعم الهوى الذي هوى بالكثير والكثير من أجمل سنوات العمر المخذول تحت قدميه.

تعلم أنها ما تهاونت في حق ذلك الحب. وأنها أغدقت عليه بحنان في كل لحظة. لم تعرف الجحود واعطت بكل ما تملك حتى وان لم يفيق هو من غيبوبة الجفاء التي سحقته تحت أقدام معاناته. فلم يرحم نفسه، ولم يرحمها بصوت حنون دافئ يعانق أنفاسها المسافرة على وجهه الذي ما عشقت سواه تهمس باسمه. لكنه لا يشعر بها وكأنه لا يسمعها شاهي تمشى بأطراف أناملها على كتفيه. تناديه بهمس ملهوف. فلا يرد النداء.

ثم يعلو صوتها بالنداء. لكن إياد سافر قاطع عليها خط الرجعة بتذكرة ذهاب بلا عودة. فقد صعدت روحه لرحمة السماء. عل رحمة رب العباد تغفر له ما فعله بنفسه وبها. شاهي. غير مصدقة ما تراه. وفي ذهول تتحسس أنفاسه. ثم تمسك بيديه، وتتلاشى في إلا وجود. غير مصدقة ما تراه عينيها وغير مستوعبة ما يحدث على الإطلاق.

الصدمة أكبر من قدرتها على الاحتمال. فالقلب قد أضناه وأماتته مفاجآت الأقدار. ونحيب يبكي في حسرة حتى كاد عقلها يذهب منها. في لحظة فاقت الاحتمال، والاستيعاب.

فإياد. كان لها كل الوجود. وإلا لماذا تحملت كل ذلك الهوان من أجل إلا تتخلى عنه، وان تبقى لجواره. رغم كل ما حدث منه. تتماسك ثم تمسح دموع عينيها، وبيد مرتعشة تتلقف سماعة التليفون لتتصل بصديقيه المقربين. أحدهم طبيب، والآخر زميله بالدراسة، والعمل بالجامعة. وكانا دائمين السؤال عنه، وعنها. تتمنى ان يخيب ظنها صديقه الطبيب؛ وان يكون ما حدث مجرد غيبوبة سيفيق بعدها. ويعود إليها.

يحضر الطبيب الصديق ليؤكد خبر وفاته بأزمة قلبية مفاجئة. ويلحق بهم صديقه الذي يجاوره المسكن منذ سنوات الطفولة. غير مصدق

ما حدث. لأن إياد كان قد أبلغه بالأمس ما أبلغ به شاهي عن عودته للعمل. ولمس من صوته مدى أقباله على الحياة، والذي كان افتقده منذ الحادث. ينتهوا من مراسم الدفن. ثم يظلون إلى جوارها هم وزوجاتهم يخففوا من أحزانها.

بعد عدة أيام... شاهي. وحيدة يكسرها الحزن الثقيل. ثم تقرر أن تلملم شتات نفسها وتعود لمصر قاطعة علاقتها بإنجلترا نهائيا.

مطار القاهرة.

لم تتمالك نوال نفسها وهي تحتضنها. فانهارت بعدما صار كل ما فيها يبكي، ويتمتم بالاعتذار لها. لأنها وافقت زوجها عاصم علي بعد ابنتهم الوحيدة عنهم. ولم تكن بينهم، وبينها سوى زيارات قليلة. يذهبون خلالها لرؤيتها، والاطمئنان عليها بلندن.

أما إياد فكان يرفض نزولهم لمصر متحجج بعمله بالجامعة. ثم بعد الحادثة، كان من الطبيعي ان تبقى ابنتهم بجوار زوجها، وعدم التخلي عنه. لم تستطيع نوال الذهاب للاطمئنان على ابنتها. أو حتى حثها على النزول لمصر. ثم العودة مرة أخرى لإنجلترا وكأنه كان استسلام لقتامة الأيام من بعد وفاة زوجها عاصم.

فيلا الزمالك.

شريف. أخيها الأصغر تزوج، وأنجب البنين، والبنات، وصارت الفيلا شيئا فشيئا ملكية خاصة له، ولزوجته المتسلطة والتي قد ألغت شخصيته تماما، وطمست ملامحها.

بعد مرور شهور. بعد ان سمح شرف لنفسه أن تنزويا أمه ونوال، وتتقوقعا على حزنهما في حجرتيهما معظم الوقت.

شتاء 1986...

تقرر شاهي أن تعمل في دار لرياض الأطفال. كانت يوما ما فيلا جارهم العزيز طبيب الأطفال، والتي استقطع أولاده جزء منها لهذه الدار من بعد وفاته ووفاة أمهم.

فما تبقى معها من مدخرات بعد تلك السنوات التي مضت. أعانها لبعض الوقت على التكيف والتعايش مع هذا الزمن البخيل الذي تشعر فيه بالغربة. إلا أنها تحاكى نفسها وهي جالسة في حديقة الفيلا مع والدتها يحتسيان الشاي. وتذهب بخيالها عند سنوات مضت.

تتذكر أبطال قصص كاتبها المفضل إحسان عبد القدوس والذين كانت تندهش حين ترى ان بداخل حكاياتهم الحالمة، والناعمة. آخرين. وترى أن في بعض من شرورهم نسج من خيال الكاتب، ولم يخطر ببالها أنهم سيكونون يوم ما. واقع تعيشه. وتتعايش معه. سواء مع زوجة أخيها، وأقاربها الذين احتلوا الفيلا أسوأ احتلال. مقتحمين حياتهم بمنتهي الهمجية.

وأنماط أخرى مختلفة من البشر اضطرتها الظروف للتعامل معهم في مجال عملها. أو من خلال بعض التعاملات البسيطة الملحة بالحياة. وأشياء كثيرة استفزها أنها تغيرت بسلوكيات الناس. لتثبت من خلالها أن الزمن لم يعد زمنها. ولكنها مضطرة أن تواصل الحياة. وتتعايش وتراعى والدتها. التي تشعر لجوارها الأنيق أنها ما زالت سيدة الزمن الجميل، وليست مواطن درجة تانية.

***

هاوية الوجع

(1)

زخات من مطر تسبح في براح الروح... تدق على نافذة قلب يشتاق بلهفة للحظات انطلاق... تأتي الصباحات مصطحبة غيمات شمس كانت تتراقص من بعيد، فتلوح لها، وتخبرها للمجيء. لكن على مهل، كي لا تسرقها الأيام، وهي تسابق الزمن، ثم تستحلفها أن تتأنى، وأن تتأنى الخطو كي لا تقل بخطوات العمر المشدود على وتر خيوطها الذهبية، فتجيئ عابرة في بحر فياض من حلو ومر الأيام...

ثم ترحل غارقة في كل ليلة تاركة مساءات القلب ودفء الكلمات سابحة في بريق النجمات؛ لتغفو في رضا براح الروح بالنافذة الزجاجية كانت راجية تستحلف رياح المدينة إلا تضجر، وأن ترحل في هدوء. حاملة عن أكتافها مالم تعد تستطع تحمله من تجاوزات طقوس تلك الحياة.

فهل استشعرت الصغيرة حينها إشارات السماء، وتداركتها. لتعطيها وافر حقها في ضرورة الانتباه، والحذر؟ وهل مهما احتطنا نحن من عثرات تلك الحياة، وحملنا حذرنا معنا في حقائب صبرنا على الأيام. سيصير لنا مدخر وافر من هذا الصبر الذي كم تمنينا أن يعيننا على تقبل تغيرات طقوس الحياة والقلوب؟!

هيهات. فمتى منع الحذر قدرا على مر الزمان؟!

للأسف راجية كانت مثلنا. وكانت كالكثيرين من البشر. لم تنتبه لإشارات السماء التي أرسلت لها، وأودعت أمام عينيها على عتبات طقوس الأيام.

فلم تحظى برحلة الصعود الأخير في ركاب الأمنين من غدر الأيام، ولم يكن لها مقعد على هذا الجناح الهنى، ولا هذا المتكئ المطرز بخيوط ناعمة من حرير الأحلام إلا هذا الوقت القصير المستقطع من رحلة أيامها وقت إقلاع قلبها من هنا. ووصوله إلى هناك. وهو يصطحب براءة اللهو معه بحلو الأمنيات.

على ضفاف النيل الساحر يقف البيت الكبير مطلا على حواديت وجنبات الحكايات. شاهدا على الكثير من تفاصيل وجوه وقلوب ساكنيه. تسكن عائلة راجية هذا البيت الكبير مع الجد والجدة والأبناء. الجد الكبير الذي عاشت في صحبة أيامه طفلة سعيدة مع عائلتها بين جنبات البيت الكبير.

هو جدها لأبيها. اسمه محرم وهو أصل تجارة المنيفاتورة القديمة بعدما توسع بها مع أخيه منذ وفاة والدهم الجد الأكبر راجي الكبير. ثم ذاع صيتهم آنذاك بتلك المدينة الساحرة أسوان. تلك التجارة التي آلت فيما بعد لوالد راجية مقسمة بينه وبين أخته بشرع الله. أما أخيه فقد كان واصى عليه.

تتذكر راجية جدها محرم وهي تكتب مذكراتها، وهي جالسة بشرفة البيت الكبير المطلة على النيل وتقول: جدي كان رجل ذا مهابة لم تكسرها أمام عيون الناس على مر الزمان هذه الجلسة التي امتدت بطول سنوات عمره على ذاك الكرسي المتحرك.

كان جدي. أسمر البشرة. عسلي العينين. فخيم الصورة والصوت، مهيب الطلة، وان بدت هذه الطلة في بدايات شبابه كما أخبرني أبى قعيدة عاجزة لذوي النظرة السطحية، لكنه كان يبدو دائما لمن يرون

الحياة بمرآة الواقع المؤثر في حياة من حولهم. بهذه الهيئة المهيبة، والأعمق. وهكذا كان يراه أشباهه من أصحاب الفكر المتسع، الذي يتخطى حدود الزمان والمكان، والقدرة على تحريك الحياة إذ كانوا هؤلاء لا يرونه قعيد بل كانوا يرونه وكأنه سلطان. بهي الطلعة. يعتلي من على كرسيه عرش السطوة.

لم تمنعه أعاقته عن الـزواج. لكنه للأسف. وأعتذر أنى أقول للأسف. لأنه كان قد تزوج من إحدى قريبات العائلة، وهي جدتي. الجميلة هانم. أتذكر عيونها الزرقاء، وبشرتها التي كانت بلون الحليب الصابح. ووجنتيها النابضة بجمال الحياة. يقولون أنى أشبهها كثيرا.

أنجبا من الأبناء ثلاثة، اثنان أصحاء. وطفل معوق. عاش على كرسي متحرك ولا يحرك ساكنا. ارتضى جدي بنصيبه، ولم يؤثر فيه هذا الموضوع طويلا. على الأقل أمام العائلة. ركز جدي في أن يجتهد بعد وفاة والده الجد الأكبر.

جدي محرم كان قوي لم يستسلم لهذا الكرسي، بل انطلق من فوقه كالجواد الجامح، ورفع من شأن تجارتهم مع أخيه الأصغر. فتفرغوا تماما لتجارة والدهم، والتي جعلتهم من أكبر أصحاب محلات المنيفاتورة بأسوان. قبل أن تمتد فروعهم بعد ذلك خارج حدود أسوان. لتصل للقاهرة، والإسكندرية.

وكان أخيه الأصغر يحترم كلمته، ويعمل لها ألف حساب وحساب. إلى جانب أن محرم كان بالفعل كبير العائلة. فكلمته مسموعة. إذ كان يفض الخصومة والنزاع. كذلك كان يقوم بمساعدة أولاد أعمامه بكل ما يحتاجونه من مشورة لرعاية أراضيهم الزراعية.

فقد كان موسوعة متفردة من الاطلاع والقراءات المتعددة في كافة مجالات الحياة من تجارة لصناعة، لزراعة، فترك مكتبة كاملة كإرث عائلي لأولاده، وأحفاده بالبيت الكبير. وأوصاهم بالمداومة على الاطلاع والقراءة لأنهما كانا نافذته المتحركة ليرى هذا العالم الذي لم تستطع قدماه السير والوصول إليه.

لذا صار محرم بالذات دون سائر أخوته يوزن الجميع عقله بميزان الذهب وقد ورث عنه تلك المواهب المتفردة ابنه راجي أبي وابن ابنته حبيبي جواد.

الجد محرم. كان بالفعل رجل واثق الحال ملكا وقد ورث عنه ابنه راجي والدي تلك الصفات فكان بكامل هيئته وهيبته وصفاته الشخصية والعقلية الفذة.

الأب راجي محرم كان رجلا هو الآخر واثق الخطى يمشي ملكا.

***

(2)

أقطن أنا، وأبى، وأمي، وأخي على بالطابق العلوي، بينما يقبع خالي راضي راضيا بحاله الذي لا يعلم عنه شيء أنه خالي راضي الذي يعيش بيننا بروحه الطاهرة بالطابق الذي يلينا وتقوم على خدمته أمي مع عاملة المنزل بعد وفاة جدتي هانم والدته.

هو أيضا كان شاب جميل الطلة مثل أبيه وأخيه، لكنه كان يختلف عنهم في شيء وحيد إذ كان قد سبق الصالحين منهم إلى الجنة. فكان يعيش بين الجميع عازف منفرد في ملكوت الله. لا يدري عن مجريات

أمور دنيانا من حوله سوى شيء واحد كان يطل من عينيه عبر هذه النظرة الملائكية الحالمة. فتجده وكأنه يتفهم نظراتنا حين نلتف حوله، بتلك المشاعر الفياضة فتفيض بها عينيه أيضا حين تلامس طبطبات يدينا مسامع قلبه قبل كتفيه. فتستشعر من ابتسامته الصافية أنه كان يحتضن معهم أيضا تلك اللحظات التي كانت تجمعهم، وكأنه شديد الوعي والأدراك لهذا السلام العائلي الذي تحمله طبطات الروح فنستشعر جميعا روح الحياة! لكن الكلمات بين شفتيه كانت كسيحة الحروف عاجزة عن الرد.

أما العمة راجية الكبيرة والتي قد سميت أنا باسمها فكانت قسمتها ونصيبها من هذه الدنيا هذا الجوار العزيز لبيت عمها فؤاد محرم والذي بات ذات يوم هو البيت الذي ضمها بحنانه، ورحمته منذ أن انتقلت للإقامة به.

البيتان يتشابهان في أشياء كثيرة، بل يكادا يتطابقان في معظم تفاصيل شكل وملامح روح أيام دنياهم، وكأن حالها هو حال العائلات الكبيرة هناك، إذ كان النصيب قد وقف عندها واختارها لهذا الزواج العائلي الذي ألمها كثيرا، ولوعها أكثر حين أصبحت قسمتها كأبيها وأمها من هذه الزيجات العائلية الحاملة لجينات المرض! والذي غالبا ما يحدث من زواج الأقارب.

إذ اعتادت عائلات كثيرة على ذلك لأسباب كثيرة سواء من أجل الحفاظ على المال، أو أسم العائلة، انها شهوة السلطة العائلية، وأحيانا جبروت السطوة، وهي أشياء قد لا تمت للإنسانية بصلة. غير متداركين ما يجبه هذا الزواج عليهم فيما بعد!

وحتى إذا تداركوا بعدما يرزقون بأولاد معوقين أرجعوا الأسباب للقسمة والنصيب كي يريحوا ضمائرهم، لم تمتلك عمتي راجية من

أمرها شيء كل تلك السنوات سوى الرضا، وهذا كان أروع ما فيها. كانت تشبه إلى حد كبير جدتي هانم فتفانت في الإخلاص لنصيبها وقسمتها اللذان أثمرا في قفص الزوجية ثلاث ثمرات اثنتان سليمتان والثالثة كانت قسمتها أن تصير هي الثمرة المعطوبة.

جواد وفارس ومحرم

محرم الصغير. والذي أسموه على أسم جده لأمه وعم زوجها يونس ورث محرم عن جده وخاله كل الألم الذي ظل ينزف طوال أيام وليالي العمر كسير كسيح على ذات الكرسي المتحرك لكن جدي كان أفضل منهم حال إذ كان كامل الأهلية. سليم العقل. ناطق اللسان. عظيم الحجة. لذا لم يمنعه عجزه على الكرسي المتحرك من أن يكون مسئول أمام كافة تبعات مسئوليات الحياة، وبالفعل يكمل مشواره هو وأخيه في تجارة المينفاتورة الآن الأصحاء من الأبناء والأحفاد.

تشاركت عمتي راجية الكبرى مع أمها، وزوجة عمها الكثير من تفاصيل الألم، وكذلك محبة الأمل في ترتيب روح البيت من الداخل، وحمل أي طيف يثقل على هناوة أيام أولادهم خارج أسوار البيت الكبير.

فهي قد ورثت عنهم هذا القلب المحب كابنة، ثم زوجة، وأم. لم تشعر راجية بغربة في بيت عمها الكبير. فبيت أبيها كان مثلما بيت عمها تماما إذ هما من نوعية تلك البيوت التي كانت قد سكنتها المحبة، وفاضت بين جنابته على من قطنوا به. فنثرت المحبة عطرها في كل الأركان، والاتجاهات، ورغم ذلك لم تترك الرياح البيتين لحالهما.

فلم يبقى أي بيت فيهما بعد سنوات هادئ. هانئ. وقت طويل. وأن ظلا يحتضنا رائحة الود بين الجدران على من فيهم، أو ربما في أحيان

كثيرة كانوا يبيتوا ويصبحوا وهم مغلقي الأبواب على هناوة أوقات العائلة الكبيرة بعيدا عن عيون الناظرين. أو هؤلاء الحاسدين الذين أرجعت إليهم الجدة ما حدث بل وحملتهم مسئولية كل ما حدث لابنها الأصغر وحفيدها أبن ابنتها.

راجية تتذكر جدتها قائلة: كانت جدتي هانم راضية لكن كان أقصى ما تخشاه هو تربص عيون الحاسدين بنا. خائفة علينا من أن تحرق نار غيرتهم قلوب فلذات أكبادها، وهذا كان هو معتقد جدتي الكبيرة الوحيد والدائم. والذي أرجعت إليه أسباب مرض خالي وابن عمتي. فتراها كانت تطلق البخور بالمنزل، لتفوح رائحته العطرة. كعطر حكاياتها لنا ونحن صغار.

فوقت الظهيرة وصلاة الجمعة؛ كانت أفضل أوقات أيامها يوم الجمعة من كل أسبوع، إذ كان هو يوم العائلة حين كانت تستقبل صباحه باكر من بعد صلاة الفجر، وغالبا كان هذا شأنها مع كل الأيام في الصحو باكر. فقد كنت أشاهدها من شرفتنا إذا صحوت باكر. لكن ليوم الجمعة عندها وعندهم وقع وشأن خاص.

فهو يوم التجمع العائلي الكبير في حضن أيامها وأيام جدي محرم. فتأتي عمتي راجية بأولادها لزيارتنا في هذا اليوم من كل أسبوع، وينزل أبى أخيها الأكبر راجي بنا جميعا لنلتقي أنا وجواد على مائدة الدفء والاستمتاع بطعام الجدة الشهي، المتبل بعشق حلاوة اللحظات التي كانت تجمعنا جميعا، لكن الشيء الوحيد الذي كان يكسر نظرة الفرح في عيوننا كأطفال هو ذاك الكرسي المتحرك الذي كان يجلس عليه جدنا. محرم وابنه، وحفيده. على طاولة الغذاء معنا حينها.

أتذكر مداعبات جدي، وأحضانه الدافئة لنا جميعا، وكأنه معافى. حتى كدت أتخيله واقف على قدميه، ويضمنا بيديه جميعا دونما تفرقة بين عاجز وسليم!

أما أنا. فمنذ نعومة أظافري كنت قد وعدت قلبي أن قلب هذا الجواد بالذات ما خلق إلا ليخطفني على ظهر إشراقة أيامه، وضوء شموع لياليه، لتنبض سنوات عمري معه بالحياة.

إذ كان جواد أبن عمتي دوما هو الرفيق الوحيد لي، فمنذ أن فتحت عيوني معه على نافذة الأيام، وخطت أقدامنا الصغيرة عتبات البيت الكبير لتلهو بين جنباته. ما عرفت وما رأيت سواه.

فحين أسندت قلبي على دفء جدران البيت الكبير. رأتني هذه الجدران، واسترقت السمع لهمسات قلوبنا البريئة، واحتضنتنا. ثم جاءت خطوات الليالي تتلوها خطوات الأيام السباقة بشمس النهار. لتنطلق بعيد عن دائرة البيت الكبير، بعدما شبت أقدامنا وامتلكنا الخطوة.

***

(3)

المدينة تشبههم مهما أختلف الزمان والمكان فهذه المدينة تشبه المدينة الأخرى، وكلاهما كانت تشبهها، وتشبهه في ملامح الشكل والروح فتجدها ورغم مرور السنوات لم تزل تسبح في حياء بشرة لياليها السمراء، وتتمرغ في حضن عينيها المنكه بطعم العسل الصافي.

تلك العيون الخلابة المطلة على نيل القاهرة الساحر، تقف هي الأخرى وحيدة. شريدة. بانتظاره كلما خطفته اللحظات وسرقته خلسة

من عمر زمن الحب الذي يقف وحيد هو الآخر كلما تباعدا. النيل هنا أو هناك كما هو. لا يتغير أبدا على قلوب أحبته وأخلصت له، وأعطته من نبض دقاتها حياة.

ما زال واقف شاهد هو الآخر على الحكايات أحيانا شريد وأحيانا أخرى ينبض بالحياة، وبخاصة حين يستدعى رفيقته الشمس في كل صباح كي تدفيئ لحظات شتاءه البارد، أو حين يخبرها أن تخلع عنها ثوب الغيوم، وأن تظهر بردائها المغاير لهدوء صباحات المدينة الأخرى أسوان والذي يبزغ كل يوم هو الآخر أيضا على استحياء هناك!

بعد مرور السنوات.

تمر السنوات وراءها سنوات آخذة معها أيام وليالي العمر على قارعة النصيب، تهافتت قلوب كثيرة، حول قلب راجية إلا أنه لم يهفو سوى له، فكانت كل تلك الدقات على محطات هذه القلوب كلما جمعتهم بها الصدفة العابرة بالمدينة لها. لكنها ما كانت تشعر بأحدهم.

أو حين كانت تتفق احدى العائلات القاطنة معهم بالمدينة على ان يتقدم أحد ابنائها لطلب يدها.

تجدها لا يستجيب قلبها لأحدهم. وبالتالي لا تستوقفها أبدا دقات هذه المحطات! وهذا ما كان يخطف قلب والديها عليها لخوفهم أن تقع ابنتهم في المحظور!

وبالفعل هذا ما كان. فلم يستوقفها سوى دقاته هو جواد ابن عمتها، والذي ما استشعرت بالحب سوى معه!

منذ البدايات الباكرة في مهد الحكايات. حين فتحت عيون قلبها على طلة عينيه قاحلة السواد، وبريقهما الخاطف الأخاذ الذي أضاء لها ليالي العمر كتلك النجمات التي تضيء سماء ليل العاشقين.

كبرا سويا حتى أنهيا دراستهم الثانوية ليكملا دراستهم الجامعية بجامعة أسوان. حتى تخرج هو من كلية الطب، وتخرجت هي من كلية الصيدلة، إذ كان هذا هو المسار الوحيد الذي ما جمعتهم طرقات أيامهم به، وأن كان هو ذاته ذلك المسار المكمل لطبيعة المهنة، وطبيعة الأيام بينهما، والتي ما عرفت أبدا مسار مغاير.

معظم العائلة لم تكن مغمضة القلب عنهما لكنهم كانوا يغضوا الطرف خشية الالتفاتة. إذ كانت العائلة شاهدة على دبيب قلوبهم خلف خطوات الحكايات، لكنهم كثيرا ما كانوا يتكتمون البوح خشية فتح الجراح.

وعلى الرغم من استيعابهم الدرس القاسي وأخذهم كل الحيطة والحذر من عدم تكرار تجارب الزواج العائلي كي لا تتكرر المآسي على الرغم من ذاك الشعور المقلق المصاحب لأيام وسنوات العمر أن الحذر لا يمنع من وقوع قدر شأنهم شأن الكثيرين من الطيبين المستسلمين لأقدارهم.

ستجد راجية لم تعطى بالا. . ولم تلتفت لتحذير العائلة المستتر خلف النظرات، ودقات القلوب الحائرة خوفا عليهم ليبقى التحذير غير معلن خشية فتح الجراح.

فكانت العائلة تخشى مجرد الحديث عن سريان تلك الجينات المحملة بالألم، والكثير من الإخفاقات فوق جبين الأيام المقبلة لأبنائها. رغم أن موقف جدهم الأكبر المستنير محرم من زواج الأقارب، ثم إعلانه، وتحذيره أبنائه منه، وبخاصة بعد أنجاب ابنته راجية الكبيرة ابنها محرم الصغير من زواجها من أبن عمها حامل لجين المرض.إلا أن لنصيب العاشقين وقسمة قلوبهم مواقف أكثر حدة وتأثير، دون النظر إلى المصلحة، وما تتطلبه ضروريات ظروفهم العائلية.

فجأة ودونما مقدمات أعلن جواد رغبته بالزواج من راجية بعد تخرجهما من الجامعة مباشرة. فجواد مدرك تبعات أمر قلبه. لذا قرر المواجهة المباشرة مع العائلة.

فرحت راجية أيما فرح وكادت أن تطير إلى سماء العاشقين الملونة ب الفرح. بعد أن كاد حلمها الوحيد الذي تمنته ان يتحقق. وها هو مقبل على مشارف عمر الأيام. لكن رفض العائلة القاطع من الطرفين كاد أن يطيح بعقل العاشقين.

وأخيرا خرجت العائلة عن صمتها الطويل وكشفت ستر الحكايات بالبوح الصادق، والرفض التام لهذه الزيجة المسمومة بعدما أعلنوا جميعا أن هذه العوامل الوراثية كانت سبب رئيسي في ان جعلت قلوب بريئة تعيش كالموتى بينهم. وبالأكيد أنها ربما ستكون يوما ما مؤثرة تأثير سلبي على حياتهم هم أيضا بهذه الزيجة.

لم تكن صرخة راجية المدوية والتي خرجت كالقذيفة المشتعلة من رحم مودة الأيام بينهم. ثم وئدت في مهدها من قبل العائلة. قبل ان تنطق بأسانيد الدفاع عن هذا الحب. كفيلة بأن يتستروا جميعا، ويستتروا خلف الحكايات. والا يبوحوا كما كانوا يفعلوا قديما.

فقلب راجية لم يكن شفيع وهو يرتجى الجميع أن يتركوهم لحالهم. قلب راجية لم يكن موصل جيد لهذه الأحاسيس المتدفقة والعاشقة انتحارا على عتبات قلب جواد. هم لم يتفهموا هذا المقصد لمحراب قلبها الذي لم يجد أنيس لملكوت الروح سوى قبلته.

فلا حياة لها إلا بأنفاسه، ولا جوار إلا جوار قلبه، فهي منذ أن أحبت جواد كل هذا الحب، وهي كالراهبة لا تعرف من دنياها شيء سوى الخشوع على عتبات هواه، وهو أيضا كان مثلها لا يرى من نساء الدنيا غيرها.

وبعد شد وجذب بين جميع الأطراف قررا جواد. وراجية الزواج والسفر للقاهرة، والبعد تماما عن أجواء العائلتين المشحونة ضدهما بهذا الرفض، على إلا ينجبا أطفال فقد قررا أن يعيشا لبعضهما، ولا يتحملا وزر حياة أخرين، والتي من الممكن جدا أ ن تصير مجرد أ نفاس شريدة في صدور بريئة.

القرار لم يكن سهل عليهما أبدا، وخاصة راجية وشعورها كأنثى وهي تضحى بأمومتها بكامل أرادتها من أجل حبها لجواد.

وكذلك جواد كرجل صعيدي النشأة، والتربية ثراه يعي ان وتده الغارس في جذور أ رضه الذي سوف يشد صلبه يوم ما هو هذه العزوة من الأبناء، والتي ضحى هو الآخر بها أمام العائلة من أجل حبه لراجية. لكنهم وبعد تفكير عميق انتصرا لقلبيهما.

بعد عدة شهور.

تم تعينهم بجامعة القاهرة واستلمت راجية عملها معيدة بكلية صيدلة القاهرة. وكذلك جواد عين معيد بكلية طب القاهرة وتخصص في طب الأمراض الوراثية.

تزوجا بعد عام من أ ستلام عملهم. بعد موافقة الأسرة على مضض. وعاشا حياة هانئة في بيت صغير أنيق. أشترته لهما الأسرة في إحدى عمارات حي العجوزة المطلة على نيل القاهرة الساحر، وتم فرشه بجميع الإمكانيات اللائقة بوضعهم الاجتماعي. ثم أهدت العائلة سيارة للعروسين كي تعينهم على الانتقال بحرية في القاهرة إلى جانب شقة صغيرة أعدت لهما في أسوان ببيت العائلة الكبير. لاستقبالهم وقتما شاءوا.

لكن كل هذا لم يمنع الغصة التي علقت بقلوب أهاليهم أ ن تنقص من فرحتهم. لحرمانهم من امتداد نسل سليم معافى من راجية وجواد لو لم يكن لقسمة ونصيب قلوبهم الاحتكام لهذا الأمر. وتمسكهما بالزواج من بعضهما!

أول ثلاثة أعوام مرت عليهما كالأحلام الجميلة الخاطفة. فقد اكتفيا ببعضهما عن العالم الخارجي. ليبقيا سعيدان حالمان كما هما!

كل ما كان يزعج تلك السعادة موقف العائلة الغاضب، والصادم فيهما. بتلك النظرات الغير سعيدة التي كانت تصدر على الأخص من أمهاتهم. وهذا السكوت الحزين. الذي كان يطغى على أي جلسة سمر تنقصها البهجة التي كانت. كلما جمعتهم الإجازات حين كانوا ينزلون ببيت العائلة بأسوان.

حاولا كثيرا أن تصفو الأجواء العائلية لهما. وأن يأتيا أباءهم وأمهاتهم لزيارتهم بمنزلهم بالقاهرة. لكن للأسف دون جدوى، فأمهاتهم كانوا قد أخذوا منهم موقف متشدد. وان كان مستتر أيضا. لأنهم حرموهم من فرحتهم بهم وبذريتهم.

لكن راجية وجواد كانا سعيدان أنهما انتصرا لحبهما. ولم يكررا المأساة. فلم يتوقفا عند الإنجاب كثيرا. لأن أقسى ما كان يشقيهما في طفولتهم، ولن يرتضياه لأنفسهم. هو نظرة العائلات لهؤلاء الأبناء الذين حملوا هذه الجينات التي كان أغلبية الناس حولهما يهمسون بأنها مسمومة. إذ كانت اللوعة الكبرى كلما تذكرت راجية وتذكر جواد ما كان يحدث بالصغر.

حين غلقت الأبواب عليهم. خشية، وخيفة من كلام الناس عن الخال، وابن العمة. حتى كان راجية وجواد وإخوتهم الأصحاء. يخشون التعامل مع الغرباء. وهذا مالم يقبلا أن يعيشا فيه ثانية مع أولادهم. إذا أنجبا أبناء غير أصحاء.

وهذا صحيح، وليس بالغريب. إذ تجد أن كثير من العائلات غالبا ما يكون لها قانونها الخاص في التعامل مع مثل هذه الأمور خشية البوح وكأنها وصمة عار غير مدركين أن أصحاب هذه الأمراض يستحقون العون والاحتواء من المجتمع كله وليس من سبيل سوى انخراطهم فيه.

حتى لو ظلت أمراض الوراثة على مر الزمان شيء مؤرق للكثيرين من الأسر. خاصة تلك العائلات التي كان هذا من البداية قدرها. أو رغما عنها. أو لو حتى لو شاركت في ظلم نفسها بنفسها بحسن نية. بالنهاية لا أحد يريد أن يصاب فلذات أكباده بمكروه.

اختلف الكثيرين في الوقوف عند هذه الحالات فمنهم من اعتبروها في عداد الفضائح التي من الواجب والأصول أن يتستروا عليها ويغلقوا الأبواب، حتى صارت عرف سائد بينهم.

والبعض الآخر منهم، ومع التطور الزمنى والعلمي واجه الأمر بصدق. فاحتوى، ورحم، وكشف المسكوت عنه، وفتح الأبواب على مصراعيها، وذهب بهم في كل مكان يبحث عن أمل في الشفاء. حتى وان أكتشف هذا الأمل كان سراب.

***

(4)

تمر السنوات. تلو السنوات. وراجية كما هي منذ تلك اللحظات الأولى لمهد الغرام. ما زالت نائمة في حضن تلك اللحظات التي اندلعت فيها شرارة الحب هناك بينهما. قبل أكثر من خمسة وثلاثون عأما. منذ رزقت العائلة بهما. وحبت أنفاسهم في صدورهم أولى خطواتها بالحياة. ورزقوا هم لطف أقدارهم، ومودة محبة الحياة.

فتجدها دوما هناك عنده، وعند هذه اللحظة التي اقتلعتها فيها عينيه من دلال عليائها. حتى باتت، وأصبحت في كل ليلة تجدل ضفائر الأحلام بشرائط من حرير ملون بفرح أيام سوف تجمعهم.

فكان يخطفها من حصن الدلال الذي كثيرا ما تحصنت به وهي صغيرة وما غزاها غيره. حتى هذه اللحظة التي غرقت فيها بلا رجعة في شهد الغرام معه.

بعد مرور السنوات.

إحدى الليالي.

جواد. عائد بسيارته بعد غياب يومان أخبر خلالهما راجية أنه في مؤتمر علمي بمدينة المنصورة، يحادث نفسه وكأنه يلومها ويقول: لم تزل راجية في عيوني هي هذه الطفلة الجميلة التي أحببتها. بهاتين العينين التي تمرح مع النجوم في بحور تتلألأ بلون السماء.

راجية. أنت كما أنت كما العروس البكر. التي ما زالت تشتهيها ليالي عشقي لكي، أنت كما أنت لا أشعر بحنان أيامى سوى بين ذراعيك. ولا تتدثر بالدفء أيامى سوى بين تموجات شعرك المسافر ما بين ليالي العمر الذائبة فيك ليضمني إليك الحنين. فأعود.

فتراها وبعد مرور أكثر من خمسة عشر سنوات على زواجهما. وكأنها هي هذه الفتاة التي تمناها معظم شباب مدينتها، وهو الفارس الذي أختطفها على صهوة جواد الغرام من بينهم وهي ما تمنت سواه لترتمي هي الأخرى في كل ليلة بين أحضان عيون قلبه وتغفو في أمان.

وعلى الرغم من اعتياده الغياب في السنوات القلائل الأخيرة إلا أنها تنتظره، ولا تمل الانتظار، وهو أيضا كان يتلهف العود إليها لذا كان دوما لا يطيل أيام الغياب. أما قلبه فكان لا يرجوا من الدنيا شيء سوى أن يغفو بين أحضانها. على الرغم من أنانية جيناته الذكورية.

فكان هذا الغرام الكبير. الذي كان هناك أيضا شيء ما يؤرق لياليه. ربما قد يكون هذا الشيء الغير مرئي كوجه من أوجه الحياة المستترة لبعض البشر. فتجد أنه ربما تضطر بعضهم الأقدار بأن يكون بمكان ما هذا الصندوق الأسود الذي ربما لا يفتح أبدا. أو قد يفتح حين تجبره الظروف. ليظل الجانب الآخر في حياة كل منهم هو هذا الشيء المحسوس، والغير ملموس!

ذات مساء...

راجية وثمة قلق لا تدري له أسباب يسكنها من سنوات قلائل ولا تبوح. وكلما زار طيفه أيام العمر ولياليه خلسة. أخبئه العقل، واودعه طي النسيان.

فيظن القلب أنه وهم لم تكتبه الأقدار بعد! أو ربما كان مجرد أحلام لم ترسم بعد. فيسرع القلب من خطو اللهفة. عله يلمح ثمة أطياف حكايات، علها تأتى من خلف خبايا الأحلام وكأنه قد اعترج على ساق

واحدة! فتشبثت يداه بأمنيات كثيرة أغلبها تترنح بعدا وأخريات تتشبث بالعودة خطوة أو ربما خطوات خشية الانزلاق لهاوية الوجع!

ليلة شتاء...

تتدثر راجية بشالها الـوردي. وهي واقفة بالشرفة. البيت يلفه الهدوء. وهذه الإضاءة الخافتة الآتية من أقصى الليفنج روم. صوب الشرفة. تعكس على وجه راجية روح نجمات خفت ضوئها. ظلت تروح، وتجيئ مع هذا الطقس الغير عادى الذي يلوح به رعد السماء بإشارات كادت ان تقبض قلب راجية.

إنها تنتظر راجي وفي يديها كوب دافئ من قهوتها المفضلة. تحادث قلبها الذي يطبطب على روحها الشريدة وتقول: إنه تأخر بالمجيئ. وعلى غير العادة فهو المعتاد منذ سنوات على تلك الرحلة السنوية الخاصة بالعمل. وبتاريخها المحدد ذهاب وعودة. وأنا قد حفظت هذه التواريخ وميقاتها عن ظهر قلب.

لماذا تأخرت يا جواد، وتأخرت معك الأوقات. مختطفة الساعات التي تسرقني معها في رتابة، ولا أعلم أين؟!

يمر على موعد وصوله البيت الذي أخبرها به بالأمس أكثر من ثلاث ساعات حتى الآن. تحاول الاتصال به منذ ساعة على هاتفه الخاص ولا مجيب. الهاتف مغلق. فتنقبض أكثر وأكثر.

تدخل من الشرفة. ممسكة بالموبايل لتتصل بأخيها على كي يحضر عندها حالا. فقد مزقها القلق على راجي وتريد أن تفعل شيء كي تخرج من تلك الحالة.

يرد عليها أخيها بأنه لا داعي للقلق، وهو سيتولى الأمر، وسيحضر إليها على الفور. على كان قد انتقل للقاهرة. منذ سنوات هو وابن عمه فارس أخو جواد وتزوجا وأنجبا أولادهم وعاشوا واستقروا بالقاهرة بعد افتتاح عدة فروع لمحلاتهم التجارية بها. لكن العلاقة العائلية بشكل عام مع من بقوا بأسوان ظلت مقتضبة كل تلك السنوات بين راجية وجواد وبينهم، وخاصة مع أبائهم وأمهاتهم.

تخرج راجية من شرودها، وإحساسها لأول مرة بما كانت تتشكك به أوقات غياب جواد التي تعترف لنفسها الآن انها كانت غير منطقية في أيام بعينها، واختلاق الأسباب الغير منطقية أيضا من جانب جواد وأنها كانت تحاول أن تتقبلها دون الاستفسار. وكأنها صارت مثل عائلتها بأسوان حين كانوا يسترون الحكايات خشية البوح بما قد يؤلم!

تعترف الآن أنها مثلهم كانت تتقبل الكثير على مضض غير معلن كي لا تعكر صفو الحب بينهما.

يدق جرس الباب. تهرع راجية مسرعة. لفتح الباب عله يكون جواد. تترد وهي تجري. تقف لحظة أمام القنصل الكبير بقرب باب الشقة. لتهندم سروالها الحريري الأرجواني. ثم تفك خصلات شعرها الكستنائي من قيد هذا الشريط الأسود الحريري.

تبتسم ابتسامة وجلة. حائرة. تائهة في دقات قلبها المرتجفة ارتجافة عنيفة ظنتها هي طبول فرح. وما ظنت أبدا أن دقات طبول الفرح هذه ليست إلا كرؤيا الفرح الصاخب بالأحلام، والتي غالبا ما تكون نذير شؤم. تكابر، وتكذب إحساسها. ناطقة باسمه. جواد حبيبي.

تفتح الباب لتجد على أمامها يدخل مسرع. ثم يغلق عليهما باب الشقة. ويمسك يديها المرتعشة بين يديه، يحنو عليها ويضمها إلى صدره. تختنق دموعها، ويرتجف قلبها لوعة. فتختبئ أكثر. وأكثر بصدر أخيها. ثم تخور قواها. وتتساقط دموعها. فقلبها قد غلبه الشعور بشيء مروع.

علي يطبطب على كتفيها، ويهمس بصوت حنون ويقول: حبيبتي. غيري هدومك. وتعالي معايا.

راجية ترتعش الكلمات بين شفتيها. وثمة قلق قاتل تجهله! وتقول: أجي فين؟! فين جواد يا علي؟!

علي: جواد بخير. اطمني يا راجية. خير بإذن الله. حاجة بسيطة، تماسكي من فضلك. وما تصعبيش عليا الموقف. ما قدرش اشوفك بتتعذبي كده يا راجية.

راجية: تمسح دموع عينيها، وتحتضن أخيها وهي ترتجف.

علي: لم يكن بالنسبة لجواد أخ لزوجته، أو ابن خاله وفقط.

علي كان صديق جواد الذي يعلم عنه كل شيء. وهو أول من أبلغوه بالحادث كما كان جواد مدون بياناته في جواز سفره. ينتقلا سويا للمستشفى التي بها جواد بعد هذا الحادث المروع على طريق المطار

جواد يدخل في غيبوبة كاملة... تمر ثلاثة أيام وهي بجواره. جالسة تحت قدميه لا تعي من أمر الدنيا شيء. ولم تحاول أن تستفسر عن ملابسات الحادث. هي تخشى كشف المستور. الذي كان يفضحه قلبها. ولكنها كانت توئده وأدا.

تحضر العائلة كلها من أسوان. لتلتف كل القلوب حولهم من جديد بالحجرات المجاورة كان أبناء جواد التؤام. راجي وفهد والبالغين من العمر تسع سنوات. وأمهم نيڤين رشدي يصارعون الموت.

نيفين رشدي؛ والتي عاشت كل تلك السنوات. وماتت الآن مع أولادها في الظل. كما ارتضت منذ البدايات فهي عاشت معه عشرة سنوات منذ أن أحبت جواد ومن قبل تلك العشر سنوات. بعام واحد. حين كانت طالبة عنده بالجامعة. ووالداها مغتربان بإحدى دول الخليج. تعيش هي وحيدة فقيرة المشاعر مع جدتها العجوز. رغم ثراء عائلتها. كرهت هذه الحياة الكئيبة الجافة. فهربت من جفا أيامها للعيش مع جواد لتكوين أسرة جديدة. تحقق فيها حلمها. وتشبعها حنان ويشبعوها دفء، وأمان.

لكنها الآن غادرت الحياة. وهي ليست وحيدة. فقد أخذت أولادها معها. لم تفعل فعلة أمها وأبيها. وكأنها رفضت أن تترك أولادها بالدنيا وحدهما.

فقد كان هذا شرطها الوحيد لموافقتها على الزواج من جواد إلا يأخذ منها أولادها. أبدا لذا ارتضت حياة الظل بعدما ارتضى هو وأرضى غرور جيناته الذكورية. وأشبع أنانيته بأن يصير لديه من امرأة أخرى ودون علم راجية أولاد أصحاء، إذ لم يكن يعلم وقتها أن للقدر تصريفات أخرى. قد تهوى بكل أحلامه المحققة، وتطيح بها لهاوية وجع ليس بها أي نقطة رجوع!

تم دفن الأم مع أولادها بمقابر العائلة بأسوان بعد استئذان عائلتها. التي عادت من الخليج لحضور مراسم الدفن. فقد كانت وصية ابنتهم

إلا تترك أولادها أبدا حية أو ميتة وهو ما كانت قد أخبرت به أهلها منذ بداية زواجها من جواد حين كانوا يعترضوا على حياة الظل التي كانت تحياها ابنتهم وكأنها كانت تشعر بالمصير!

ودعهم على الوداع الأخير، والعائلة كلها التي كانت معه ومعهم في لحظات الوداع. والتي جمعتهم لأول وأخر مرة في هذا المشهد الحزين، فهم أيضا كانوا لا يعلمون عن أمر أسرة جواد الجديدة شيء.

علي فقط من كان يعلم كل شيء عن جواد وكأن اختيار جواد له كان تكفير عن خطئه بحق أخته راجية. أما على فقد غلبته أصول العائلة وترابطها، وكذلك مشاعر الصداقة الصادقة التي جمعتهم منذ الطفولة. فتحمل، وتحامل على نفسه كثيرا. وكل ما كان يهون عليه. مدى أدراكه لمكانة راجية عند جواد.

تمر الشهور... جواد. بالمستشفى ليخرج من الغيبوبة ثم يعود إلى راجية.

عاد جواد إلى بيته، وراجية ليخبر حبه العظيم أنه لم يستطع أن يخبئ سره أكثر من ذلك وعاد. عاد جواد. ليمكث ليل نهار إلى جوار حبه العظيم على ذاك الكرسي المتحرك تماما كأخيه محرم. وخاله راضي فقد صار مثلهما قعيد. لا يعي الكثير من أمر الدنيا.

أما راجية فقد رجعت معه بعد عدة أشهر إلى أسوان. وتركت القاهرة. وعملها بالجامعة. لكنها ما تركت وصية جدها محرم التي كان يتولاها راجي فقامت بالأشراف على الجمعية الخيرية التي كان قد انشئها جدهم لرعاية المعوقين. كذلك الأشراف على الدعم المادي الذي ما توقف منذ وفاة ا لجد لدعم الأبحاث العلمية القائمة على

التوصل لكل ما هو جديد في مجال البحث العلمي الخاص بالأمراض الوراثية. كل هذا وهي إلى جانبه.

بمرور السنوات؛ عادت راجية من جديد تستحلف رياح المدينة إلا تضجر. وأن ترحل بعيدة عنها حاملة عن أكتافها مالم تعد تستطع تحمله من تجاوزات طقوس الحياة. وأن تتوقف عن الصخب بالقلب والعبث ب لياليه. فكفى.. أما حبها العظيم فقد علمها وأخبرها الدرس الأخير بأنه مهما اجتهدنا في الحيطة والحذر، فلن يمنع حذرنا أبدا قدرا.

***

فهرس المحتويات

الإهداء 5

أوبن داي 7

براح عينيك 34

أيام روح 55

(1) 55

(2) 58

(3) 62

(4) 66

(5) 70

(6) 75

(7) 77

(8) 80

(9) 84

(10) 86

(11) 91

(12) 98

(13) 101

(14) 104
(15) 107
خدعوك فقالوا 112
لا تنزوي – (1) 125
(2) 133
مواطن درجة ثانية – (1) 135
(2) 137
(3) 139
(4) 144
(5) 146
(6) 151
(7) 155
(8) 158
(9) 161
(10) 164
هاوية الوجع – (1) 168
(2) 171
(3) 175
(4) 182